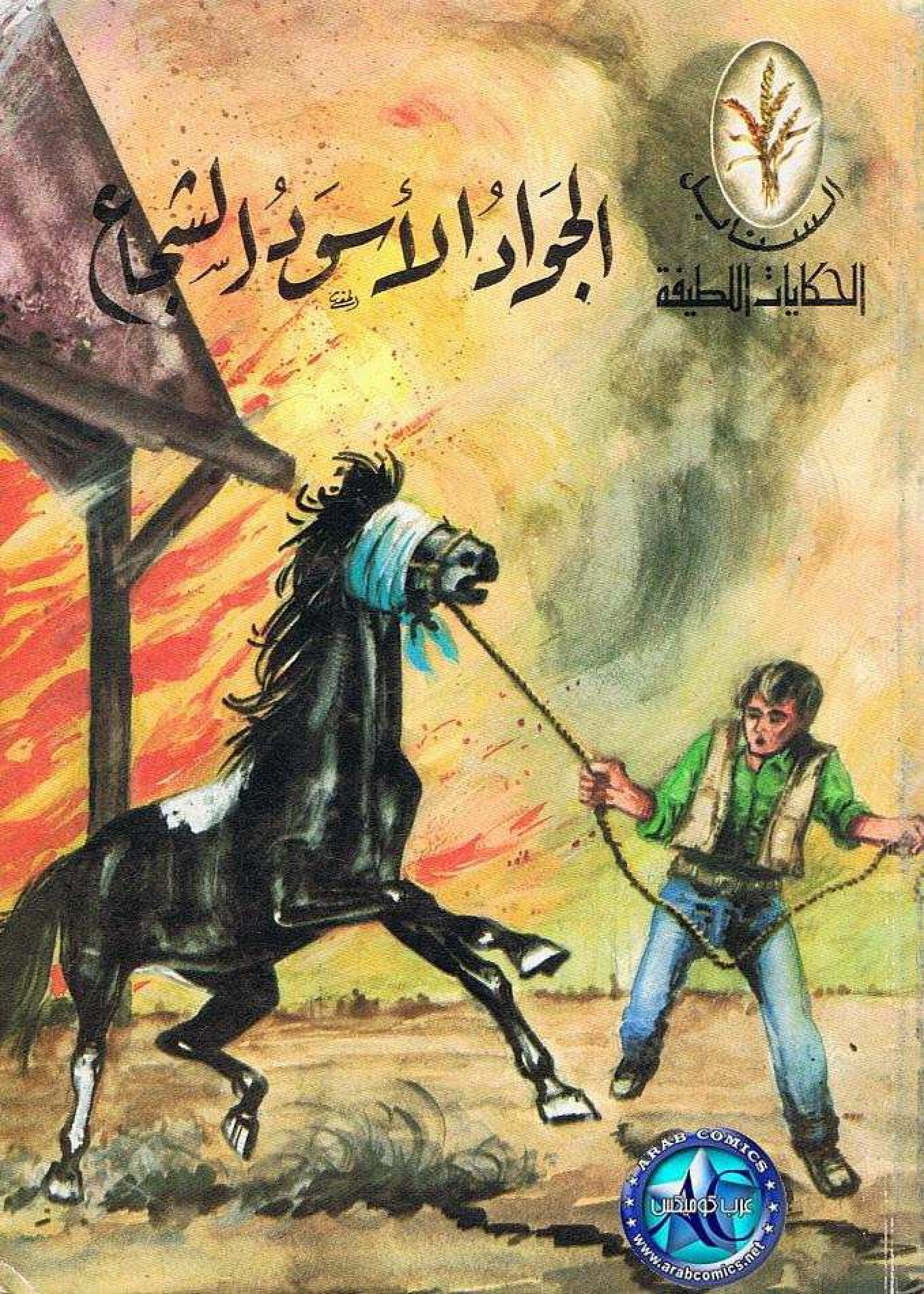
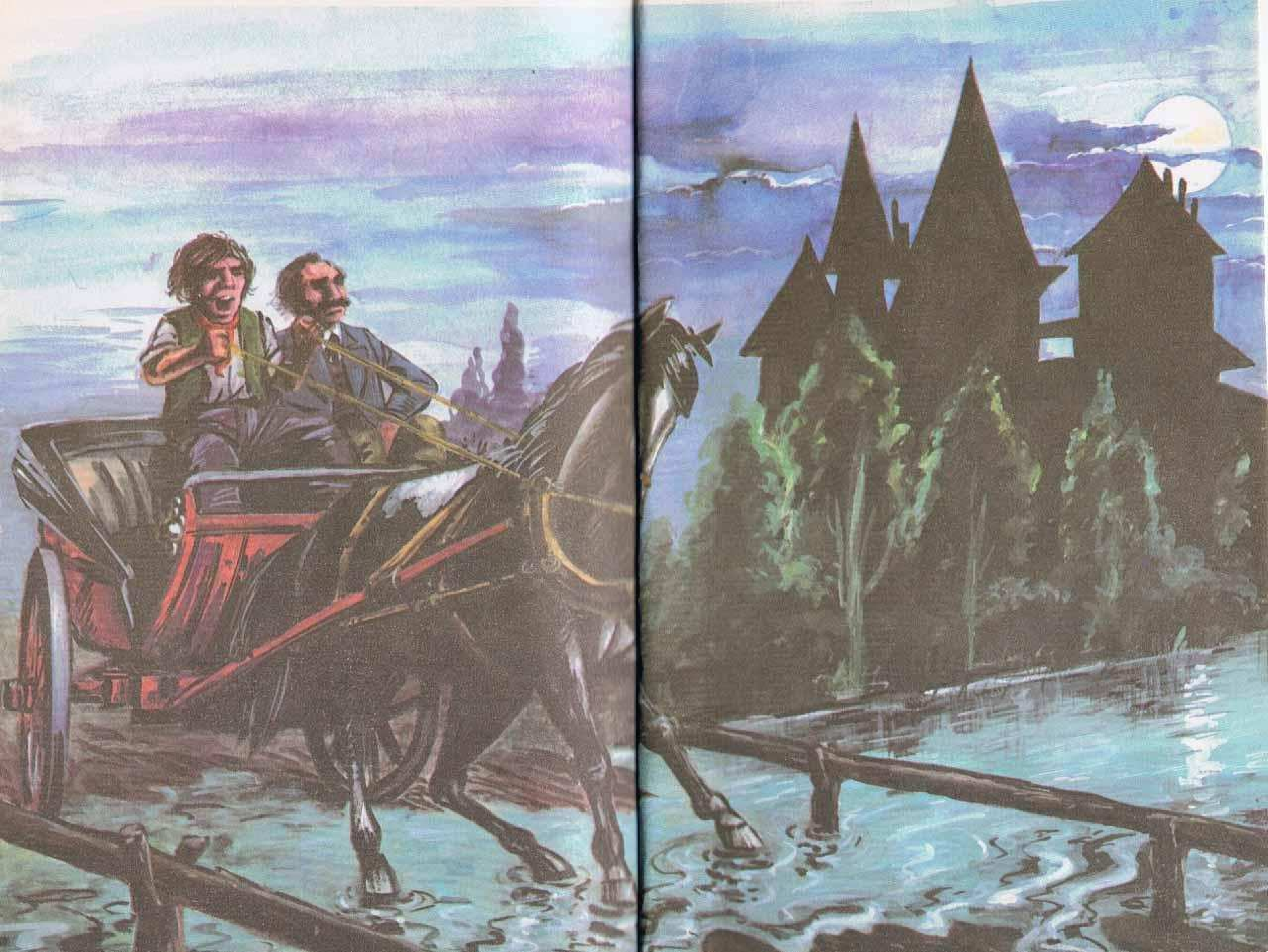
الجواد الأسود الشجاع

السنابل

الحكايات اللطيفة





١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

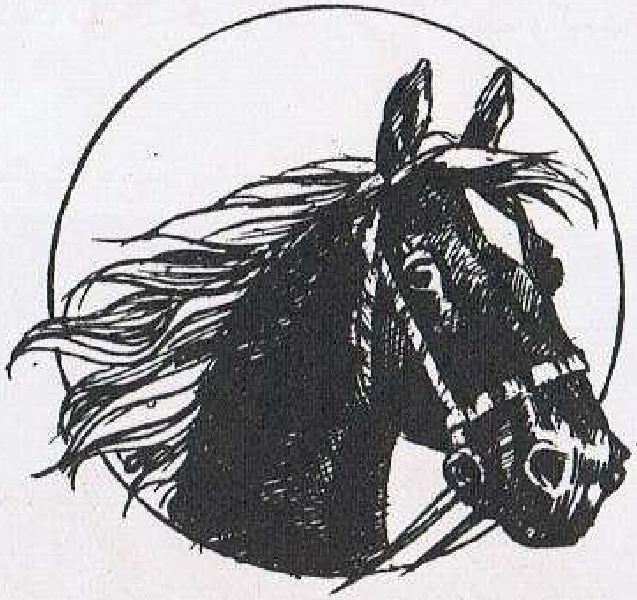
الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٣٠٦ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٦٤-٢

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

السنابل

الحكايات اللطيفة

الجواد الأسود الشجاع



تأليف : أنا سيول

إعداد : اللواء السيد أبو مسلم

رسوم : نسيم ج. نصيف

مكتبة لبنان

بيروت

اَلفَصْلُ الأَوَّلُ

أُمِّي

لا أَعي آلكَثيرَ عَنْ تِلْكَ آلفَتْرَةِ آلَّتي كُنْتُ فيها صَغيرًا ، وَ لٰكِنَّني أَذْكُرُ حَقْلًا مُتَّسِعًا غَنِيًّا بِالعُشْبِ آلأَخْضَرِ بِهِ قَليلٌ مِنَ آلأَشْجارِ . وَأَذْكُرُ أَنَّ أُمِّي كانَتْ تَقِفُ تَحْتَ إِحْدَى هٰذِهِ آلأَشْجارِ في آلأَيّامِ آلحارَّةِ ، وَأَقِفُ أَنا أَرْضَعُ مِنْ لَبَنِها ، وَذٰلِكَ قَبْلَ أَنْ أَكْبَرَ وَ أَبْدَأَ أَرْعَى آلعُشْبَ وَآلحَشائِشَ .



كانَ بِالحَقْلِ عَدَدٌ آخَرُ مِنَ آلجِيادِ آلصَّغيرَةِ . كُنّا نَلْعَبُ مَعًا هُنا وَ هُناكَ في أَرْجاءِ آلحَقْلِ ، وَ نَرْتَعُ وَ نَتَمَرَّغُ في آلعُشْبِ ، وَ نَرْفُسُ بِأَقْدامِنا في آلهَواءِ في مَرَحٍ وَسَعادَةٍ . كُنّا نَسْتَمْتِعُ بِآلحَياةِ ، وَ كَمْ كانَتِ آلحَياةُ جَميلَةً في عُيونِنا في ذٰلِكَ آلوَقْتِ .

عِنْدَما بَلَغْتُ مَرْحَلَةَ آلفِطامِ ، بَدَأَتْ أُمِّي تَتَوَجَّهُ لِلْعَمَلِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَ عِنْدَ عَوْدَتِها في آلمَساءِ كُنْتُ أَقُصُّ عَلَيْها كُلَّ ما حَدَثَ لي طَوالَ آليَوْمِ ، وَ كانَتْ تَقولُ لي :

« كَمْ أَنا مَسْرُورَةٌ لِأَنَّكَ سَعيدٌ . اِلْعَبْ قَدْرَ ما تَسْتَطيعُ وَ لٰكِنْ تَذَكَّرْ دائِمًا أَنَّكَ لَسْتَ كَغَيْرِكَ مِنَ آلأَمْهارِ . فَسَوْفَ تُصْبِحُ هِيَ بَعْدَ ذٰلِكَ جِيادًا تَعْمَلُ بِآلمَزْرَعَةِ ، لِأَنَّها لَيْسَتْ جِيادًا أَصيلَةً . أَمّا أَنْتَ ، فَأَبوكَ جَوادٌ مَعْروفٌ لِلْجَميعِ في كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزاءِ هٰذِهِ آلبِلادِ . كَما أَنَّ جَدَّكَ — أَعْني والِدي — كانَ أَفْضَلَ جِيادِ صاحِبِ آلمَزْرَعَةِ . وَ عِنْدَما تَكْبُرُ قَليلًا سَوْفَ تَتَعَلَّمُ كَيْفَ تَحْمِلُ النّاسَ عَلى ظَهْرِكَ ، وَ كَيْفَ تَنْقُلُهُمْ مِنْ مَكانٍ لِآخَرَ وَ أَنْتَ تَجُرُّ عَرَبَتَهُمْ . »

سَأَلْتُها : « وَهَلْ هٰذا هُوَ عَمَلُكِ يا أُمِّي ؟ هَلْ هٰذا هُوَ ما تَقومينَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ لِفارْمَر غراي ؟ »

أَجابَتْ : « نَعَمْ هٰذا هُوَ ما أَعْمَلُهُ . فَالسَّيِّدُ فارْمَر غراي يَرْكَبُني أَحْيانًا ، وَأَحْيانًا أُخْرى أَجُرُّ عَرَبَتَهُ ، ها هُوَ ذا قَدْ حَضَرَ . »

وَصَلَ فارْمر غراي إلى آلحَقْلِ . وَكانَ رَجُلًا طَيِّبًا يُحِبُّ أُمِّي حُبًّا شَديدًا قالَ لَها :

« حَسَنًا يا أَيَّتُها آلجَميلةُ آلعَزيزةُ ، لَقَدْ أَحْضَرْتُ لَكِ طَعامًا لَذيذًا لِتَأْكُليه . كَيْفَ حالُ صَغيرِكِ ؟ » ثُمَّ رَبَّتَ على ظَهْري وَأَعْطاني كِسْرَةَ خُبْزٍ ؛ وَكانَ خُبْزًا لَذيذَ الطَّعْمِ .

لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَرُدَّ على أَسْئِلَتِهِ ، وَلٰكِنَّ أُمِّي عَبَّرَتْ لَهُ عَنْ حُبِّها بالصَّهيلِ ، فَرَبَّتَ على ظَهْرِها ، وَانْصَرَفَ .

قالَتْ لي أُمِّي : « إِنَّهُ رَجُلٌ عَطوفٌ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ تُرْضيه . عَلَيْكَ أَنْ تُؤَدِّيَ عَمَلَكَ دائِمًا بِكُلِّ سَعادةٍ ، وَلا تَلْجَأْ إلى آلعَضِّ أَوِ الرَّفْسِ ، حَتَّى يَظَلَّ دائِمًا لَطيفًا مَعَكَ . »

اَلفَصْلُ آلثّاني

التَّعَلُّمُ

كَبِرْتُ قَليلًا ، وَكانَ شَعْري أَسْوَدَ جَميلًا ، وَكانَتْ إِحْدى قَوائِمي بَيْضاءَ ، وَكانَتْ لي غُرَّةٌ ، وَعَلامةٌ بَيْضاءُ فَوْقَ ظَهْري . أَمّا سائِرُ جِسْمي فَكانَ أَسْوَدَ .

عِنْدَما اكْتَمَلَ نُمُوّي قَدِمَ آلسَّيِّدُ غوردون مِنَ آلمَزْرَعَةِ آلمُجاوِرةِ لَنا ، وَنَظَرَ إِلَيَّ ، ثُمَّ فَحَصَ عَيْنَيَّ وَأَسْناني وَقَوائِمي ، وَقالَ :

« حَسَنٌ جِدًّا . يَجِبُ آلآنَ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَعْمَلُ ، وَسَيَكونُ مُمْتازًا . »

ماذا يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَ آلجَوادُ ؟

عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَقِفُ ساكِنًا عِنْدَما يُرَكَّبُ عَلَيْهِ طَقْمُ آلفَرَسِ وَسُيورُ اللِّجامِ . وَأَسْوَأُ أَجْزاءِ اللِّجامِ هِيَ الشَّكيمةُ . وَهِيَ قِطْعةٌ مِنَ آلحَديدِ آلبارِدِ تُرَكَّبُ في فَمِ آلحِصانِ ، وَلا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْرِفَ ما تُسَبِّبُهُ مِنْ ضيقٍ إِنْ لَمْ يُجَرِّبْها . وَلا يَسْتَطيعُ آلجَوادُ التَّخَلُّصَ مِنْ تِلْكَ الشَّكيمةِ ، لِأَنَّ اللِّجامَ يُحيطُ بِرَأْسِ آلحِصانِ مِنْ أَعْلى وَتَحْتَ آلفَمِ وَحَوْلَ آلأَنْفِ .

كُنْتُ أَشْعُرُ بِآلاِسْتياءِ مِنْ هٰذِهِ الشَّكيمةِ . وَبِاسْتِثْناءِ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ فارْمَر غراي رَجُلًا طَيِّبًا عَطوفًا . أَمّا أَنا فَلَمْ أَكُنْ أَرْفُسُ أَوْ أَعَضُّ . وَكانَتْ لِأُمّي أَيْضًا شَكيمَتُها الَّتي تُرَكَّبُ في فَمِها أَثْناءَ عَمَلِها ، كَما كانَ لِكُلِّ جَوادٍ شَكيمَتُهُ . لَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، وَلِهٰذا فَإِنَّني كُنْتُ أَقِفُ ساكِنًا لِيُرَكِّبوها

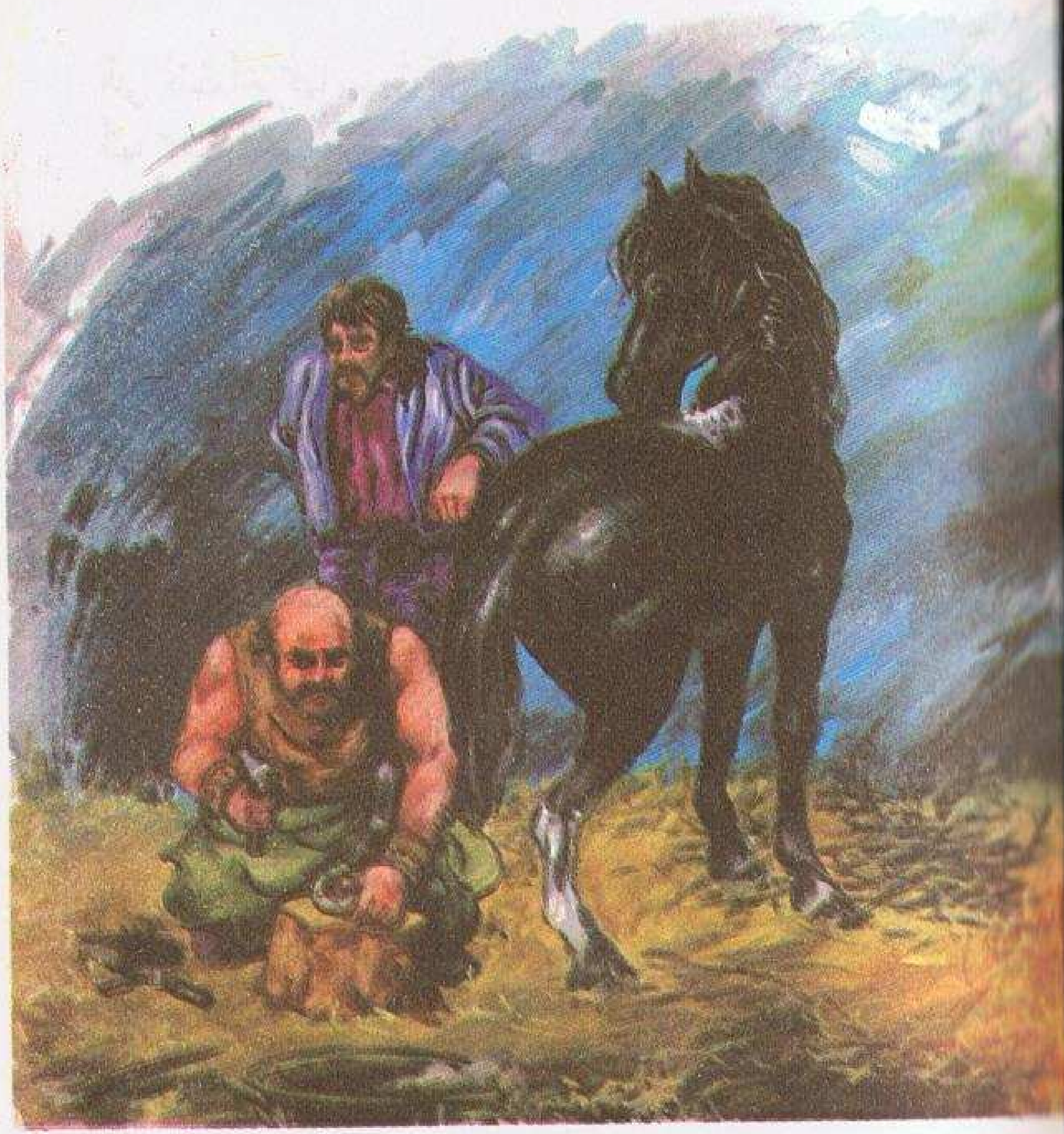
في فَمِي . وَبَعْدَ مُضِيِّ وَقْتٍ قَصِيرٍ لَمْ تَعُدِ الشَّكِيمَةُ تُضايِقُني كَثيرًا .

أَمّا السَّرْجُ فَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا بالِغَ السُّوءِ . فَعَلى كُلِّ جَوادٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَقْبَلُ السَّرْجَ عَلى ظَهْرِهِ ، وَكَيْفَ يَحْمِلُ النّاسَ عَلى ظَهْرِهِ سَواءً أَكانوا رِجالًا أَمْ نِساءً أَمْ أَطْفالًا . وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّجِهَ حَيْثُما يُوَجِّهُهُ صاحِبُهُ . وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَسيرُ وَكَيْفَ يَرْكُضُ وَكَيْفَ يَعْدو عَدْوًا سَريعًا .

كانوا يُرَكِّبونَ الشَّكِيمَةَ في فَمِي ، وَيَضَعونَ السَّرْجَ عَلى ظَهْري كُلَّ يَوْمٍ . وَكانَ فارْمَر غراي يَتَوَلّى بِنَفْسِهِ السَّيْرَ بي في الْحَقْلِ الْكَبيرِ ، ثُمَّ يُعْطيني بَعْدَ ذٰلِكَ بَعْضَ الطَّعامِ ، وَيُرَبِّتُ عَلى ظَهْري وَيَتَحَدَّثُ إِلَيَّ . كانَ عَطوفًا مَعي ، وَكُنْتُ أُحِبُّ الطَّعامَ وَأُحِبُّ التَّرْبيتَ عَلى ظَهْري ، كَما كُنْتُ أُحِبُّ كَلِماتِهِ الرَّقيقَةَ . وَبَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ لَمْ أَعُدْ أَخافُ الشَّكيمَةَ أَوِ السَّرْجَ .

ذاتَ يَوْمٍ اعْتَلى فارْمَر غراي ظَهْري ، وَجَلَسَ عَلى السَّرْجِ . وَفي الْيَوْمِ التّالي رَكِبَني وَسارَ بي في أَرْضِ الْحَقْلِ . وَلَمْ يَكُنْ يُعْجِبُني أَنْ يَرْكَبَ أَحَدٌ عَلى ظَهْري ، لٰكِنّي كُنْتُ مَسْرورًا أَنَّ الَّذي عَلى ظَهْري هُوَ سَيِّدي الْعَطوفُ . وَاسْتَمَرَّ بَعْضَ الْوَقْتِ يَرْكَبُني وَيَسيرُ بي في الْحَقْلِ كُلَّ يَوْمٍ .

وَكانَ الشَّيْءُ الْآخَرُ السَّيِّئُ هُوَ تَرْكيبَ النَّعْلِ (الْحَذْوَةِ) ، وَكُنْتُ خائِفًا . تَناوَلَ الرَّجُلُ الَّذي يَتَوَلّى تَرْكيبَ النَّعْلِ قَوائِمي واحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرى . فَقامَ أَوَّلًا بِإِزالَةِ بَعْضِ الْأَجْزاءِ الصُّلْبَةِ مِنْ حافِري . وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يُؤْلِمْني ، لِهٰذا وَقَفْتُ ساكِنًا مُرْتَكِزًا عَلى ثَلاثِ قَوائِمَ عَلى حينَ كانَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ في كُلِّ حافِرٍ مِنْ حَوافِري عَلى حِدَةٍ .



وَأَخيرًا رَكَّبَ الرَّجُلُ نَعْلًا حَديدِيًّا في كُلِّ قائِمَةٍ مِنْ قَوائِمي الْأَرْبَعِ ، وَلَمْ أَجِدْ في ذٰلِكَ ما يُؤْلِمُني ، وَلٰكِنّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُحَرِّكَ قَوائِمي بِنَفْسِ السُّهولَةِ

الَّتي كُنْتُ أُحَرِّكُها بِها مِنْ قَبْلُ . إلَّا أَنَّني اعْتَدْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْها ، فَضْلًا عَنْ أَنَّها كانَتْ تَحْمي قَوائِمي مِنَ ٱلأَحْجارِ وَمِنْ وُعورةِ الطَّريقِ .

تَعَلَّمْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ كَيْفَ أَسيرُ بِطَقْمِ جَرِّ ٱلعَرَباتِ . وَهوَ سَرْجٌ صَغيرٌ وُضِعَ عَلى ظَهْري ، وَطَوْقٌ كَبيرٌ رُكِّبَ حَوْلَ رَقَبَتي ، وَغِمامَتانِ ثُبِّتَتا عَلى جانِبَيْ وَجْهي حالَتا دُونَ أَنْ أَرى شَيْئًا بِجانِبي ، فَلَمْ أَرَ إلَّا ما كانَ أَمامي مُباشَرَةً .

بَدَأَ فارْمَر غراي يَجْعَلُني أَجُرُّ ٱلعَرَبَةَ مَعَ أُمّي ، وَكانَ يَقولُ لي وَهُوَ يَضَعُ طَقْمَ ٱلجَرِّ عَلَيَّ : « إِنَّكَ سَوْفَ تَتَعَلَّمُ مِنْها ٱلكَثيرَ . » وَ بِٱلفِعْلِ تَعَلَّمْتُ مِنْ أُمّي ٱلكَثيرَ . فَقَدْ عَلَّمَتْني كَيْفَ أَتَحَرَّكُ وَ كَيْفَ أُدْرِكُ مايُريدُهُ السّائِقُ مِنّي ، وَلٰكِنَّها قالَتْ لي أَيْضًا :

« هُناكَ مَنْ يُجيدونَ قِيادَةَ ٱلعَرَباتِ ، وَمَنْ لا يُحْسِنونَ قِيادَتَها . وَ هُناكَ أَيْضًا سادَةٌ طَيِّبونَ وَ آخَرونَ قُساةٌ . فَالسَّيِّدُ فارْمَر غراي سَيِّدٌ طَيِّبٌ إلى أَقْصَى مَدًى . إِنَّهُ إِنْسانٌ عَطوفٌ يُفَكِّرُ في أَمْرِ جِيادِهِ . وَ هُناكَ رِجالٌ أَشْرارٌ وَ قُساةٌ ، بَلْ وَ أَغْبِياءُ . فَعَلَيْكَ دائِمًا أَنْ تَكونَ جَوادًا مُمْتازًا ، وَ يَجِبُ أَنْ تَجْعَلَ النّاسَ يُحِبُّونَكَ . وَ لا تَكُنْ كَسولًا ، حَتَّى لَوْ كانَ النّاسُ قُساةً أَوْ كانوا أَغْبِياءَ في تَعامُلِهِمْ مَعَكَ . »

الفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

مَزْرَعَةُ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون

في شَهْرِ مايو قَدِمَ رَجُلٌ لِيَصْطَحِبَني إلى مَزْرَعَةِ السَّيِّدِ غُورْدُون ، فَقالَ لي فارْمَر غراي :

« كُنْ جَوادًا مُمْتازًا ، وَابْذُلْ أَقْصَى جَهْدِكَ . » وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَقولَ شَيْئًا ، فَوَضَعْتُ أَنْفِي في راحةِ يَدِهِ ، فَرَبَّتَ عَلَيَّ في رِفْقٍ .

كانَتْ مَزْرَعَةُ السَّيِّدِ غُورْدُون واسِعَةً ، وَبِها مَنْزِلٌ كَبيرٌ ، وَعَدَدٌ مِنْ حَظائِرِ ٱلخَيْلِ ، وَسَقائِفُ لِلْعَرَباتِ . وَ هُناكَ أُخِذْتُ إلى حَظيرةٍ بِها أَرْبَعَةُ جِيادٍ .

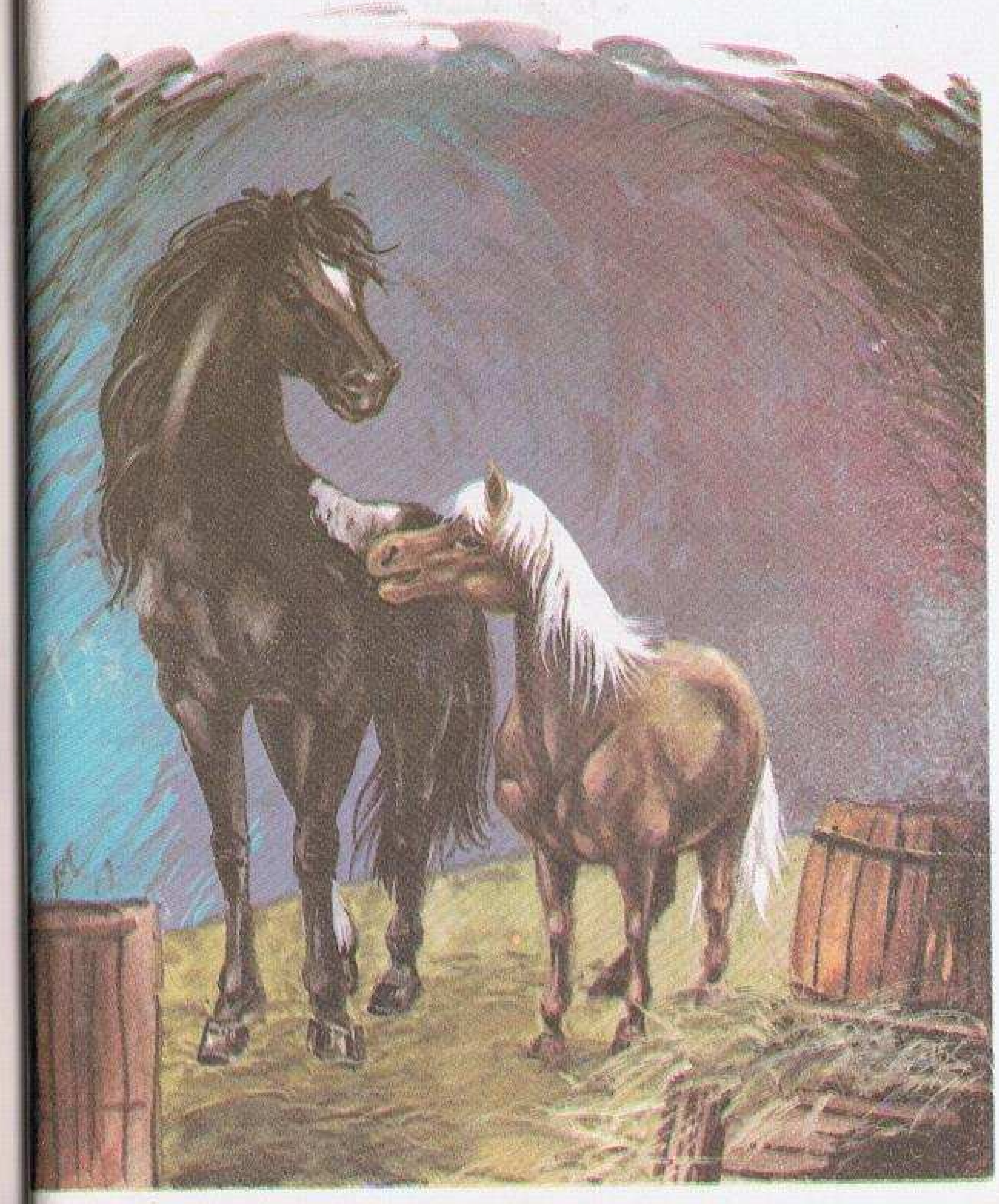
بَعْدَ أَنْ تَناوَلْتُ ماقُدِّمَ لي مِنْ طَعامٍ نَظَرْتُ حَوْلي ، فَشاهَدْتُ – في رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ ٱلحَظيرةِ – جَوادًا قَصيرًا ، مُمْتَلِئَ ٱلجِسْمِ ، ذا رَأْسٍ صَغيرٍ وَعَيْنَيْنِ مُتَأَلِّقَتَيْنِ . فَسَأَلْتُهُ : « مَنْ أَنْتَ ؟ »

أَجابَ قائِلًا : « اِسْمي مِريلِغز وَأَنا جَميلٌ جِدًّا ، وَأَحْمِلُ ٱلفَتَياتِ الصَّغيراتِ عَلى ظَهْري . وَٱلجَميعُ يُحِبُّونَني ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَكونَ جَوادًا لَطيفًا إذا كُنْتَ سَتَعيشُ إلى جِواري ؛ فَأَنا لا أُحِبُّ ٱلجِيادَ الَّتي تَعَضُّ . »

نَظَرَتْ فَرَسٌ إلى مِريلِغز مِنْ رُكْنٍ آخَرَ ، وَكانَتْ فَرَسًا ذاتَ شَعْرٍ بُنِّيٍّ ضارِبٍ إلى ٱلحُمْرَةِ جَميلٍ ؛ وَلٰكِنَّ عَيْنَيْها كانَتا تَفيضانِ بِٱلغَضَبِ . وَكانَتْ كُلَّما غَضِبَتْ أَرْجَعَتْ أُذُنَيْها إلى ٱلخَلْفِ ، شَأْنَ كُلِّ ٱلجِيادِ عِنْدَما تَغْضَبُ .

وَسَأَلَتِ ٱلفَرَسُ في غَضَبٍ : « هَلْ سَبَقَ أَنْ عَضَضْتُكَ ؟ »

أَجابَ مِرِيلِغْز بِسُرْعَةٍ : « لا ياجِنْجَر ! لَمْ يَحْدُثْ هٰذا . »



عِنْدما خَرَجَتِ ٱلفَرَسُ جِنْجَر لِلْعَمَلِ بَعْدَ الظُّهْرِ ، قالَ لِي مِرِيلِغْز عَنْها :

« إنَّ جِنْجَر تَعَضُّ فِعْلًا ، بَلْ إِنَّها عَضَّتْ ذاتَ يَوْمٍ ذِراعَ جيمْس وَآلَمَتْهُ كَثيرًا ، وَتَخْشاها فلُورا وَ جيسي ، ابْنَتا السَّيِّدِ غُورْدُون . وَلا تَأْتيانِ لَنا بِشَيْءٍ نَأْكُلُهُ بِسَبَبِ وُجودِ جِنْجَر هُنا . »

سَأَلْتُهُ : « وَلِماذا تَعَضُّ ؟ هَلْ هِيَ شِرِّيرَةٌ ؟ »

أَجابَ : « لا ! وَلٰكِنِّي أَظُنُّ أَنَّها لَمْ تَكُنْ سَعيدَةً . وَكَثيرًا ما سَمِعْتُ أَنَّها لَمْ تَتَمَتَّعْ بِعَطْفِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ إلى هُنا . وَلٰكِنَّها سَوْفَ تَتَغَيَّرُ أَثْناءَ وُجودِها هُنا . إِنَّني أَبْلُغُ مِنَ ٱلعُمْرِ اثْنَيْ عَشَرَ عامًا ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أُؤَكِّدَ لَكَ أَنَّهُ لَيْسَ هُنالِكَ مَكانٌ أَفْضَلُ مِنْ هٰذا ٱلمَكانِ ؛ كَما أَنَّ جُون أَفْضَلُ سُوّاسِ ٱلخَيْلِ في هٰذِهِ ٱلبِلادِ . هٰذا إلى جانِبِ جيمْس الَّذي يُعَدُّ أَحْسَنَ الصِّبْيَةِ . أَمّا السَّيِّدُ غُورْدُون فَهُوَ أَحْسَنُ أَصْحابِ ٱلجِيادِ . نَعَمْ ، إنَّ هٰذا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُغَيِّرَ مِنْ طِباعِ جِنْجَر أَثْناءَ وُجودِها هُنا . »

اَلفَصلُ آلرّابِعُ

بَدَأَتْ بِدايَةً طَيِّبَةً

كانَ اسْمُ رَئِيسِ سُوّاسِ آلخَيْلِ جُون مانْلِي ، وَ كانَ يَسْكُنُ مَعَ زَوْجَتِهِ وَ ابْنِهِ آلوَحِيدِ في مَنْزِلٍ صَغيرٍ على مَقْرَبَةٍ مِنْ حَظيرَةِ آلجِيادِ .

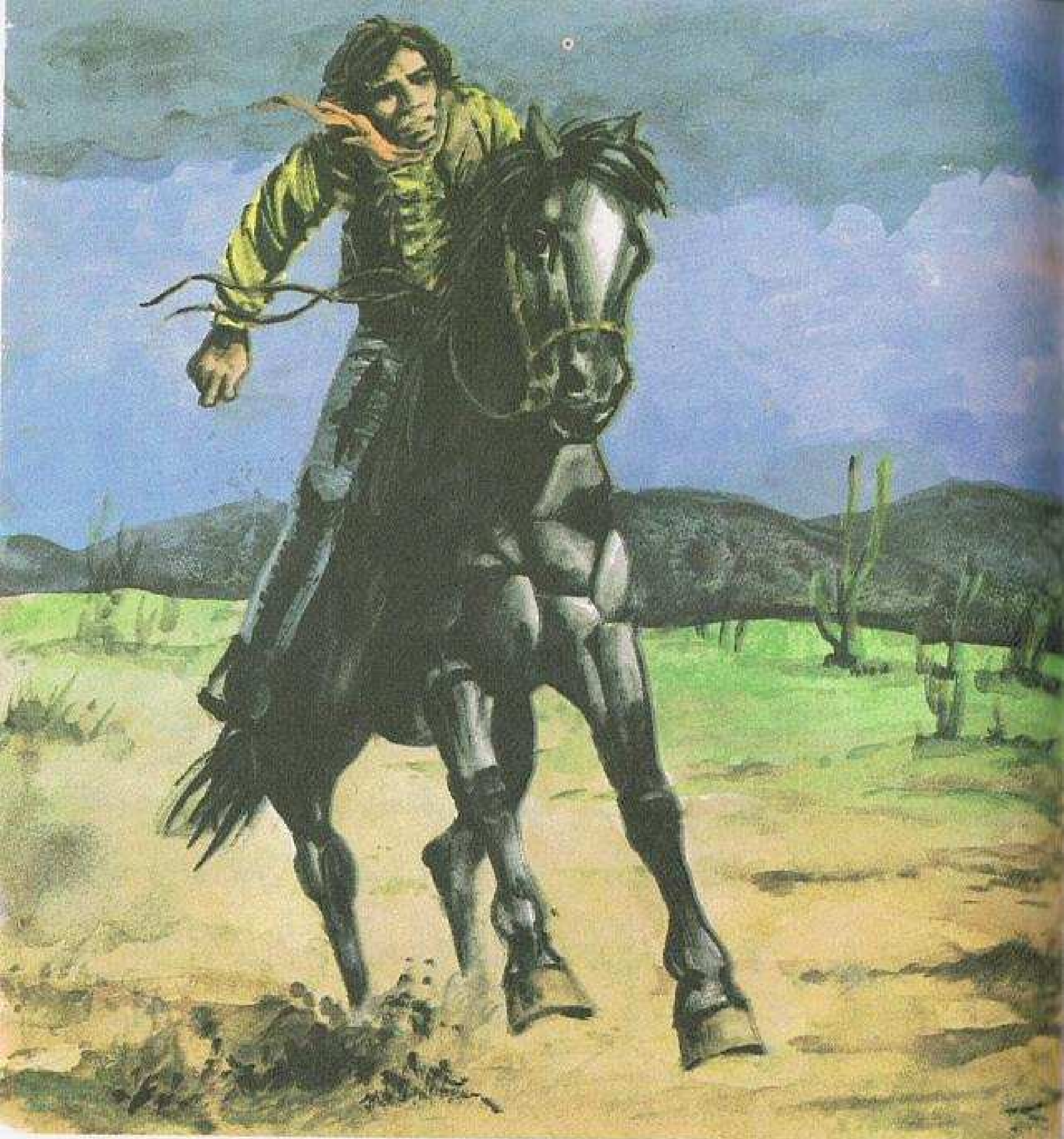
في صَباحِ آليَوْمِ آلتّالي ، حَضَرَ جُون وَ اصْطَحَبَني إلى آلحَظيرَةِ وَاعْتَنى بي . وَ عَمِلَ بِكُلِّ جِدٍّ لِيُنَظِّفَ شَعْري وَ يُجَمِّلَني ، ثُمَّ جاءَ السَّيِّدُ غُورْدُون وَ نَظَرَ إِلَيَّ قائِلًا :

« إنَّهُ يَبْدو مُمْتازًا . وَ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أُجَرِّبَهُ بِنَفْسي صَباحَ آليَوْمِ ، وَ لٰكِنَّني مَشْغولٌ ، لِذا ارْكَبْهُ أَنْتَ يا جُون ، وَ قُلْ لي رَأْيَكَ فيهِ . »

وَضَعَ جُون السَّرْجَ على ظَهْري ، وَ لٰكِنَّهُ وَجَدَهُ صَغيرًا ، فَغَيَّرَهُ ، ثُمَّ انْطَلَقْنا : وَجَدْتُ أَنَّ جُون فارِسٌ ماهِرٌ جِدًّا ، وَ كُنْتُ أَعْرِفُ مايُريدُهُ مِنّي .

سِرْتُ مَسافَةً عَلى الطَّريقِ وَ رَكَضْتُ مَسافَةً أُخْرى . وَ حاوَلْتُ أَنْ أَجْعَلَهُ يَهْوَى رُكوبي . قادَني بَعيدًا عَنِ آلطَّريقِ إِلى أَرْضٍ فَسيحَةٍ بِها آلكَثيرُ مِنَ آلحَشائِشِ وَبَعْضُ آلأَشْجارِ . وَلَمّا أَرادَ مِنّي أَنْ أَعْدُوَ عَدَوْتُ بِكُلِّ سُرْعَةٍ . وَقَدْ أَجَدْتُ آلعَدْوَ ، وَ سُرِرْتُ لِذٰلِكَ سُرورًا بالِغًا ، وَأَظُنُّ أَنَّ جُون سَعِدَ بِذٰلِكَ أَيْضًا . عِنْدَما رَجَعْنا إِلى آلمَزْرَعَةِ سَأَلَ آلسَّيِّدُ غُورْدُون آلسّائِسَ جُون عَنّي قائِلًا : « كَيْفَ حالُ آلجَوادِ يا جُون ؟ »

أَجابَهُ قائِلًا : « إِنَّهُ مُمْتازٌ ، بَلْ إِنَّهُ جَوادٌ رائِعٌ يَجْري كَالطَّيْرِ ، وَ يُحِبُّ



آلعَدْوَ . وَإِذا حَرَّكْتَ آلعِنانَ قَليلًا عَرَفَ ما تُريدُهُ أَنْ يَفْعَلَهُ ، فَيَقِفَ أَوْ يَنْعَطِفَ يَمينًا أَوْ شِمالًا . وَ يَبْدو أَنَّهُ كانَ دائِمًا مَوْضِعَ عَطْفِ آلجَميعِ ، لِهٰذا فَإِنَّهُ لا يَخْشَى أَحَدًا وَ لا يَخافُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ . »

قالَ آلسَّيِّدُ غُورْدُون : « يُسْعِدُني أَنْ أَسْمَعَ ذٰلِكَ ، وَ سَوْفَ أُجَرِّبُهُ بِنَفْسي غَدًا . »

فِي صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي نَظَّفَ جُون جِلْدي بِٱلفِرْجَوْنِ ، وَوَضَعَ ٱلسَّرْجَ عَلى ظَهْري وَاصْطَحَبَني مِنَ ٱلحَظيرةِ إلى ٱلمَنْزِلِ .

تَذَكَّرْتُ ما كانَتْ تَقولُهُ لي أُمّي ، لِذا حَرَصْتُ عَلى أَنْ أَعْمَلَ كُلَّ ما كانَ يَطْلُبُهُ مِنّي ٱلسَّيِّدُ غورْدُون . فَقَدْ كانَ ماهِرًا في رُكُوبِ ٱلجِيادِ ، عَطوفًا إلى دَرَجةٍ بَعيدةٍ .

عِنْدَما عادَ بي ٱلسَّيِّدُ إلى ٱلبَيْتِ ٱلكَبيرِ كانَتْ زَوْجَتُهُ تَقِفُ بِٱلبابِ ، فَقالَتْ لَهُ : « حَسَنٌ يا عَزيزي : هَلْ أَعْجَبَكَ ٱلجَوادُ ؟ »

أَجابَها ٱلسَّيِّدُ غورْدُون : « إِنَّ ما قالَهُ جُون عَنْهُ صَحيحٌ تَمامًا . إِنَّهُ أَحْسَنُ ما رَكِبْتُ مِنَ ٱلجِيادِ . » ثُمَّ سَأَلَها : « ماذا نُسَمّيهِ ؟ »

أَجابَتْهُ زَوْجَتُهُ : « إِنَّهُ جَوادٌ أَسْوَدُ جَميلٌ . وَيُمْكِنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ ٱلجَمالَ ٱلأَسْوَدَ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

قالَ زَوْجُها : « ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ ! نَعَمْ ، نَعَمْ ! في رَأْيي إِنَّهُ اسْمٌ جَميلٌ . »

حَضَرَ جُون لِيَقُودَني إلى ٱلحَظيرةِ ، فَقالَ لَهُ ٱلسَّيِّدُ غورْدُون : « لَقَدْ أَطْلَقَتْ زَوْجَتي عَلى ٱلجَوادِ اسْمَ ٱلجَمالِ ٱلأَسْوَدِ . »

سُرَّ جُون بِذٰلِكَ سُرورًا بالِغًا ، وَقالَ لي وَهُوَ يَقُودُني :

« هَيّا بِنا أَيُّها ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ . إِنَّكَ فِعْلًا ٱلجَمالُ بِعَيْنِهِ – كَما أَنَّ هٰذا اسْمٌ لَطيفٌ . »

اَلفَصْلُ ٱلخامِسُ

أَصْدِقائي ٱلجُدُدُ

أَحَبَّني جُون كَثيرًا ، وَكانَ سائِسَ خَيْلٍ مُمْتازًا . وَقَدْ حَرَصَ عَلى أَنْ يَجْعَلَ شَعْرِيَ ٱلأَسْوَدَ يَبْدو في أَجْمَلِ مَنْظَرٍ . وَكانَ يَفْحَصُ قَوائِمي كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَعْرِفُ إذا كانَتْ أَيٌّ مِنْها تُؤْلِمُني ، فَيَقُومُ بِمَسْحِها بِشَيْءٍ في يَدِهِ . وَكانَ يَتَحَدَّثُ مَعي كَثيرًا ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ كُلَّ كَلِماتِهِ . وَلٰكِنْ بَعْدَ فَتْرةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ صِرْتُ أَعْرِفُ ما يَدورُ بِفِكْرِهِ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ جُون مِثْلي حُبًّا بالِغًا .

أَحْبَبْتُ جيمْس هَوارْد أَيْضًا ، وَهُوَ ٱلصَّبِيُّ ٱلَّذي يَعْمَلُ بِٱلحَظيرةِ . وَقَدْ تَعَلَّمَ مِنْ جُون كَيْفَ يَكونُ رَقيقًا في تَعامُلِهِ مَعَ ٱلجِيادِ . وَكانَ يُساعِدُ جُون في ٱلعِنايةِ بي ، وَقَدْ دَلَّهُ جُون عَلى أَجْزاءِ جِسْمِ ٱلحِصانِ ٱلَّتي يُمْكِنُ أَنْ تُؤْلِمَهُ إذا ما دُلِّكَتْ بِشِدَّةٍ . وَعَرَّفَهُ أَيْضًا ٱلأَجْزاءَ ٱلَّتي إذا ما رَبَّتَ عَلَيْها ٱلسّائِسُ أَوْ دَلَّكَها شَعَرَ ٱلحِصانُ بِٱلرّاحةِ .

وَبَعْدَ بِضْعةِ أَيّامٍ خَرَجْتُ لِأُشارِكَ جِنْجَر في جَرِّ إِحْدى ٱلعَرَباتِ . وَكُنْتُ خائِفًا مِنْها ، لِأَنَّها رَفَعَتْ أُذُنَيْها إلى ٱلخَلْفِ عِنْدَما قادُوني إِلَيْها ، وَلٰكِنَّها وَقَفَتْ ساكِنةً بَيْنَما كانُوا يَضَعُونَ طَقْمَ ٱلجَرِّ فَوْقي وَأَنا بِجِوارِها .

تَوَلّى جُون قِيادَتَنا ، وَعَمِلْنا بِكُلِّ جِدٍّ ، فَلَمْ تَكُنْ جِنْجَر بِٱلفَرَسِ ٱلكَسولِ ، بَلْ كانَتْ تَجُرُّ ٱلعَرَبةَ بِنَفْسِ ٱلقُوَّةِ ٱلَّتي أَجُرُّ أَنا بِها عِنْدَما كُنّا



نَصْعَدُ تَلًّا مِنَ ٱلتِّلالِ ؛ بَلْ كانَتْ دائِمًا عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِأَنْ تَزيدَ مِنْ سُرْعَتِها . فَمِنَ ٱلمَعْروفِ أَنَّ ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلجِيادِ لا تُسْرِعُ ٱلخُطى **إِلّا** إِذا ضَرَبَها ٱلسّائِقُ بِسَوْطِهِ ، أَمّا جِنْجِر فَكانَتْ مِثْلي ، إِذْ كُنّا نَجْري بِأَسْرَعِ ما نَسْتَطيعُ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَطْلُبَ مِنّا ٱلسّائِقُ ذٰلِكَ . وَلَمْ يَكُنْ جون يُحِبُّ أَنْ يَسْتَعْمِلَ ٱلسَّوْطَ ، فَلَمْ يَضْرِبْنا بِهِ ، وَعَمِلْنا مَعَهُ بِكُلِّ جِدٍّ .

بَعْدَ أَنْ خَرَجْتُ مَعَ جِنْجِر عِدَّةَ مَرّاتٍ لِجَرِّ ٱلعَرَبَةِ تَوَطَّدَتْ أَواصِرُ ٱلصَّداقَةِ بَيْنَنا ، وَأَحْبَبْنا مِريلِغز حُبًّا جَمًّا . فَقَدْ كانَ جَوادًا شُجاعًا ، وَكانَتِ ٱبْنَتا

ٱلسَّيِّدِ ٱلصَّغيرَتانِ تُحِبّانِ رُكوبَهُ دونَ أَنْ تَخافا ٱلسُّقوطَ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِهِ .

أَمّا زَوْجَةُ ٱلسَّيِّدِ غورْدون فَقَدْ أَحَبَّتْنا نَحْنُ ٱلثَّلاثَةَ وَأَحْبَبْناها .

كانَ ٱلسَّيِّدُ غورْدون حَريصًا عَلى أَنْ يَمْنَحَ مَنْ يَعْمَلونَ مَعَهُ يَوْمًا لِلرّاحَةِ مِنَ ٱلعَمَلِ كُلَّ أُسْبوعٍ ، وَكانَ لِجِيادِهِ ٱلحَقُّ نَفْسُهُ . وَكانوا في أَيّامِ ٱلآحادِ يَقودونَنا إِلى حَقْلٍ غَنِيٍّ بِٱلعُشْبِ ٱلأَخْضَرِ ٱلجَميلِ ، وَنَظَلُّ هُناكَ طَوالَ ٱليَوْمِ دونَ أَعِنَّةٍ أَوْ سُروجٍ وَكُنّا نَجْري وَنَلْعَبُ في سَعادَةٍ ، وَنَقِفُ تَحْتَ ٱلأَشْجارِ وَنَقْضي ٱلوَقْتَ في سَرْدِ ٱلقِصَصِ .

الفَصْلُ السّادِسُ

الجِسْرُ

في يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ شَهْرِ نوفَمْبِر ، رَغِبَ السَّيِّدُ في زِيارَةِ عَدَدٍ مِنَ الرِّجالِ في بَلْدَتِهِ . كانَتِ الرِّحْلَةُ إلى هُناكَ طَويلَةً فَرَبَطَني جُون إلى عَرَبَةٍ صَغيرَةٍ ذاتِ عَجَلَتَيْنِ ، لا يَجِدُ الجَوادُ في جَرِّها صُعوبَةً تُذْكَرُ . وَ كانَتْ عَجَلَتا العَرَبَةِ كَبيرَتَيْنِ مِمّا جَعَلَها تَسيرُ في سُهولَةٍ وَ سُرْعَةٍ .

تَوَلّى جُون مانْلي قِيادَةَ العَرَبَةِ بَيْنَما جَلَسَ سَيِّدي إلى جِوارِهِ . كانَ المَطَرُ يَهْطِلُ بِغَزارَةٍ ، وَ الطَّقْسُ رَديئًا ، وَ الطَّريقُ يَمُرُّ في أَحَدِ المَواضِعِ فَوْقَ النَّهْرِ عَبْرَ جِسْرٍ خَشَبِيٍّ . وَ كانَتِ المِياهُ تَمْلَأُ النَّهْرَ وَ تَفيضُ لِتُغَطِّيَ بَعْضَ جَوانِبِ الجِسْرِ . وَ لٰكِنَّنا رَغْمَ ذٰلِكَ كُنّا نَسْتَطيعُ أَنْ نَتَبَيَّنَ جانِبَيِ الجِسْرِ المُشَيَّدَيْنِ مِنَ الخَشَبِ ، فَضْلًا عَنْ أَنَّ الجِسْرَ كانَ ثابِتًا لا يَهْتَزُّ تَحْتَ قَوائِمي ، وَ لِهٰذا لَمْ أَشْعُرْ بِالخَوْفِ عِنْدَما عَبَرْناهُ .

اقْتَضَتْ ظُروفُ عَمَلِ سَيِّدي أَنْ يَبْقى في بَلْدَتِهِ لِبِضْعِ ساعاتٍ . وَ بَدَأْنا رِحْلَةَ العَوْدَةِ في الوَقْتِ الَّذي هَبَطَ فيهِ الظَّلامُ ، وَ كانَ المَطَرُ يَهْطِلُ .

قادَ سَيِّدي العَرَبَةَ ، وَ عِنْدَما وَصَلْنا إلى الجِسْرِ لَمْ يَجْذِبِ العِنانَ عَلى الإِطْلاقِ ، لِذا فَإِنَّني بَدَأْتُ آخُذُ طَريقي بِالعَرَبَةِ لِتَعْبُرَ النَّهْرَ . وَ ما إِنْ وَطِئَتْ قَوائِمي الجِسْرَ حَتّى تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ يَجِبُ أَلّا نَعْبُرَهُ ، فَتَوَقَّفْتُ عَلى الفَوْرِ .

قالَ سَيِّدي : « اُعْبُرْ ! اُعْبُرْ ! لا تَخَفْ ! إِنَّ الماءَ الَّذي يُغَطّي الجِسْرَ قَليلٌ . » وَ لَمَسَني بِالسَّوْطِ ، وَلٰكِنَّني ظَلَلْتُ واقِفًا في مَكاني .



قالَ جُون : « إِنَّهُ خائِفٌ مِنْ شَيْءٍ ما . » وَ قَفَزَ مِنَ العَرَبَةِ وَ تَقَدَّمَ حَتّى وَصَلَ إلى رَأْسي وَ قالَ لي : « هَيّا ! تَقَدَّمْ أَيُّها الجَمالُ ! » وَ حاوَلَ أَنْ يَقودَني فَوْقَ الجِسْرِ ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَتَحَرَّكْ . فَقَدْ كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّهُ يَنْبَغي أَلّا أَسيرَ فَوْقَ هٰذا الجِسْرِ .

كانَ عَلى الضِّفَّةِ الأُخْرى مِنَ النَّهْرِ بَيْتٌ يَسْكُنُهُ رَجُلٌ يَعْمَلُ في صِيانَةِ هٰذا الطَّريقِ . وَ ما إِنْ سَمِعَ أَصْواتَنا وَ رَأى ضَوْءَ العَرَبَةِ مِنْ نافِذَتِهِ حَتّى خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ ، وَ هوَ يَحْمِلُ مِصْباحًا وَ يَصيحُ قائِلًا : « تَوَقَّفوا ! انْتَظِروا ! » وَلَمّا وَصَلَ إلى الجِسْرِ صاحَ قائِلًا :

« لَقَدْ سَقَطَ جُزْءٌ مِنَ الجِسْرِ في النَّهْرِ ، وَ جَرَفَتْهُ المِياهُ بَعيدًا . إِنَّكُمْ لا

تَسْتَطيعونَ أَنْ تَعْبُروهُ ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تُواصِلوا ٱلسَّيْرَ بِمُحاذاةِ ٱلنَّهْرِ حَتَّى تَصِلُوا إلى ٱلجِسْرِ ٱلتَّالي . »

قالَ سَيِّدي : « شُكْرًا للهِ . »

أَمَّا جُون فَقالَ لِي : « إِنَّكَ حَقًّا جَميلٌ . » وَ قادَني بَعيدًا عَنِ ٱلجِسْرِ .

صَمَتَ سَيِّدي وَ جُون مانْلِي لَحْظَةً ، وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى ٱلجِسْرِ ٱلتَّالي ، ثُمَّ أَخَذا يَتَحَدَّثانِ عَنْ حادِثَةِ ٱلجِسْرِ . وَ قالَ سَيِّدي :

« إِنَّ ٱلإِنْسانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يُفَكِّرُ وَ كَيْفَ يُفَسِّرُ ٱلظَّواهِرَ ، لِأَنَّ اللهَ خَلَقَهُ بِهٰذِهِ ٱلقُدْرةِ . أَمَّا ٱلجِيادُ وَ غَيْرُها مِنَ ٱلحَيَواناتِ الصَّدِيقَةِ لِلْإِنْسان فَقَدْ خَلَقَها اللهُ بِصُورَةٍ أُخْرَى . فَهِيَ تَعْرِفُ أَشْياءَ كَثيرةً بِٱلغَرِيزةِ وَ دُونَ أَنْ تُفَكِّرَ ، وَلِهٰذا فَإِنَّها تَتَمَكَّنُ في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ مِنْ أَنْ تُنْقِذَ ٱلإِنْسانَ . »

قالَ جُون مُؤَيِّدًا سَيِّدَهُ : « نَعَمْ هٰذا صَحيحٌ . » ثُمَّ شَرَعَ يَحْكي قِصَصًا عَنْ بَعْضِ ٱلجِيادِ ٱلَّتي أَنْقَذَتْ أَصْحابَها .

عِنْدَما وَصَلْنا إلى ٱلمَزْرَعةِ خَرَجَتْ زَوْجَةُ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون مِنَ ٱلبَيْتِ وَ قالَتْ : « كَمْ أَنا سَعيدةٌ بِعَوْدَتِكُمْ أَخيرًا . هَلْ وَقَعَ مَكْروهٌ لَكُمْ ؟ »

أَجابَها ٱلسَّيِّدُ غورْدُون : « لا يا عَزيزَتي ، وَلٰكِنَّنا كِدْنا نَلْقى حَتْفَنا ، لَوْلا أَنَّ ٱلجَمالَ ٱلأَسْوَدَ أَنْقَذَنا . » وَ رافَقَها إلى داخِلِ ٱلبَيْتِ وَهُوَ يَقُصُّ عَلَيْها ما حَدَثَ عِنْدَ ٱلجِسْرِ .

قادَني جُون إلى ٱلحَظيرةِ وَفَكَّ عَنِّي طَقْمَ جَرِّ ٱلعَرَباتِ . وَ يالَهُ مِنْ عَشاءٍ طَيِّبٍ ذٰلِكَ ٱلَّذي قُدِّمَ إِلَيَّ في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ ! كَما لَقيتُ مِنْ جُون مَزيدًا مِنَ ٱلرِّعايةِ ، وَفَعَلَ كُلَّ مايَسْتَطيعُ لِيُعَبِّرَ لي عَنْ شُكْرِهِ .

اَلفَصْلُ ٱلسَّابِعُ
جِيمْس هَوارْد

فِي يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيَّامِ جاءَ ٱلسَّيِّدُ إلى ٱلحَظِيرةِ وَسَأَلَ جُون مانْلِي : « كَيْفَ يُؤَدِّي جِيمْس عَمَلَهُ ياجُون ؟ »

أُجابَهُ جُون : « بِصورةٍ حَسَنةٍ جدًّا . لَقَدْ تَعَلَّمَ ٱلكَثيرَ ، وَهُوَ عَطوفٌ عَلى ٱلجِيادِ ، وَهِيَ تُحِبُّهُ . إِنَّهُ يَتَعَلَّمُ ٱلآنَ كَيْفَ يَقودُها ، وَسَرْعانَ ماسَيُصْبِحُ سائِقًا مُمْتازًا . »

فِي هٰذِهِ ٱللَّحْظةِ حَضَرَ جِيمْس ، فَقالَ لَهُ ٱلسَّيِّدُ : « ياجِيمْس ! لَقَدْ تَسَلَّمْتُ خِطابًا مِنْ صَدِيقِي ٱلسَّيِّدِ كلِيفورْد وِلْيامْز ، يَطْلُبُ فيهِ مِنِّي أَنْ أُرَشِّحَ لَهُ شابًّا يَعْمَلُ عِنْدَهُ سائِسًا لِجِيادِهِ ، وَ سَيَدْفَعُ لِهٰذا ٱلشّابِّ أَجْرًا مُجْزِيًا ، وَسَيُخَصِّصُ لَهُ غُرْفَةً لِسُكْناهُ ، وَسَيُوَفِّرُ لَهُ ما يَحْتاجُهُ مِنْ مَلابِسَ لِلْعَمَلِ بِٱلحَظيرةِ . وَسَيَكونُ هُناكَ عَدَدٌ مِنَ ٱلصِّبْيَةِ لِمُساعَدَتِهِ . إِنَّني لا أَوَدُّ أَنْ أَفْقِدَكَ ، كَما أَنَّ جُون سَيَحْزَنُ لِفِراقِكَ . »

قالَ جُون مُؤَيِّدًا : « نَعَم ، سَوْفَ أَحْزَنُ لِذٰلِكَ ، وَلٰكِنِّي لَنْ أُحاوِلَ أَنْ أَمْنَعَهُ أَوْ أَعْتَرِضَ طَرِيقَهُ . »

قالَ ٱلسَّيِّدُ غورْدُون : « نَعَمْ سَوْفَ نَحْزَنُ جَميعًا لِفِراقِكَ ، وَلٰكِنَّنا نَتَمَنَّى لَكَ ٱلخَيْرَ . وَعَلَيْكَ أَنْ تُناقِشَ مَعَ والِدِكَ هٰذا ٱلمَوْضوعَ وَقْتَ تَناوُلِ ٱلغَداءِ ، ثُمَّ أَبْلِغْني بَعْدَ ذٰلِكَ إذا كُنْتَ تَرْغَبُ في أَنْ أُرَشِّحَكَ لِلعَمَلِ لَدَى ٱلسَّيِّدِ



كليفورْد وِلْيامْز .»

عِنْدما عَرَفْنا أَنَّ جيمْس يَرْغَبُ في أَنْ يَذْهَبَ ويَتْرُكَنا شَعَرْتُ بِٱلحُزْنِ ، وَكانَ ذٰلِكَ هُوَشُعُورَ جِنْجَر وَ مِرِيلِغْز أَيْضًا . وَلٰكِنَّنا كُنَّا نَعْرِفُ أَنَّ هٰذا في صالِحِهِ .

قَبْلَ أَنْ يَتْرُكَنا جيمْس بِسِتَّةِ أُسابيعَ ظَلَلْنا نَعْمَلُ مَعَهُ بِكُلِّ جِدٍّ ، فَقَدْ كانَ يُريدُ أَنْ يَكونَ سائِقًا مُمْتازًا ، وَكانَ كُلٌّ مِنَ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون وَجُون مانْلِي يَرْغَبانِ في مُساعَدَتِهِ لِذا فَقَدْ كانَتِ ٱلعَرَبَةُ تَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَكُنْتُ أَنا وَ جِنْجَر نَجُرُّها ، وَيَقومُ جيمْس بِقِيادَتِها ، وَكانَ يَتَعَلَّمُ بِسُرْعَةٍ . وَقَدْ جَلَسَ جُون في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ إلى جِوارِهِ لِمُدَّةِ خَمْسَةِ أَسابيعَ حَتَّى صارَ يُحْسِنُ ٱلقِيادَةَ وَحْدَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ .

كانَ سَيِّدي يَقُولُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ : «يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ إلى ٱلمَدينَةِ .» فَكُنَّا نَذْهَبُ دائِمًا في أَوْقاتٍ غَيْرِ مُناسِبَةٍ ، فَنَجِدُ هُناكَ أَعْدادًا كَبيرَةً مِنَ ٱلعَرَباتِ بِأَنْواعِها ٱلمُخْتَلِفَةِ ، وَٱلكَثيرَ مِنْ راكِبي ٱلجِيادِ وَٱلَّذينَ كانوا يَتَوَجَّهونَ إلى مَحَطَّاتِ ٱلقِطاراتِ ، أَوْ يَعْبُرونَ ٱلجِسْرَ وَهُمْ في طَريقِ عَوْدَتِهِمْ إلى مَنازِلِهِمْ .

ذاتَ يَوْمٍ قالَ ٱلسَّيِّدُ غُورْدُون لِجُون مانْلِي : «يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَ زَوْجَتي إلى ٱلمَدينَةِ ٱلمُجاوِرَةِ غَدًا . سَوْفَ نَذْهَبُ بِٱلعَرَبَةِ ٱلَّتي سَيَجُرُّها ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ وَمَعَهُ جِنْجَر ، وَ سَيَتَوَلَّى جيمْس ٱلقِيادَةَ .»

كانَتِ ٱلرِّحْلَةُ إلى هٰذِهِ ٱلمَدينَةِ تَعْني ٱلسَّفَرَ مَسافَةَ خَمْسَةٍ وَسَبْعينَ

كيلومِترًا . وَفي آليَوْمِ آلأَوَّلِ مِنَ آلرِّحْلةِ قطَعْنا خَمْسينَ كيلومِتْرًا ، ثُمَّ تَوَقَّفْنا لِنَبيتَ في أَكْبَرِ فَنادِقِ آلبَلْدَةِ .

أَجادَ جيمْس قِيادَتَنا طوالَ آلرِّحْلةِ ، فكُنّا إذا صَعِدْنا تلًّا تَوَقَّفْنا أَعْلاهُ قليلًا ، وَلَمْ يَكُنْ يُسْرِعُ في قِيادَتِهِ عِنْدَ نُزولِنا مِنْهُ . وَكانَ يَخْتارُ أَفْضَلَ آلأَماكِنِ مِنَ آلطَّريقِ آلَّتي تُناسِبُ قَوائِمَنا حَتّى نَسيرَ عَلَيْها . وَتِلْكَ أُمورٌ تُهِمُّ كُلَّ جَوادٍ ، كَما أَنَّ آلجَوادَ يَسْعَدُ لِسَماعِ آلكَلِماتِ آلرَّقيقةِ آلطَّيِّبَةِ .

في آلفُنْدُقِ لَقينا كُلَّ عِنايةٍ ، كَما قُدِّمَ لَنا هُناكَ أَفْضَلُ أَنْواعِ آلطَّعامِ . رَبَّتَ جيمْس عَلَيْنا قائِلًا : « سَعِدْتُما مَساءً ، وَأَتَمَنّى لَكُما ، أَنْتِ ياجِنْجَر وَيا أَيُّها آلجَمالُ آلأَسْوَدُ نَوْمًا هادِئًا . » ثُمَّ تَرَكَنا وَانْصَرَفَ .

اَلفَصْلُ آلثّامِنُ

آلنّارُ

بَعْدَ وُصولِنا آلفُنْدُقَ بِساعةٍ تَقْريبًا ، قَدِمَ إلى هُناكَ رَجُلٌ يَمْتَطي صَهْوَةَ جَوادٍ ، فَقامَ أَحَدُ آلعامِلينَ بِآلفُنْدُقِ بِإحْضارِ آلجَوادِ إلى آلحَظيرةِ .

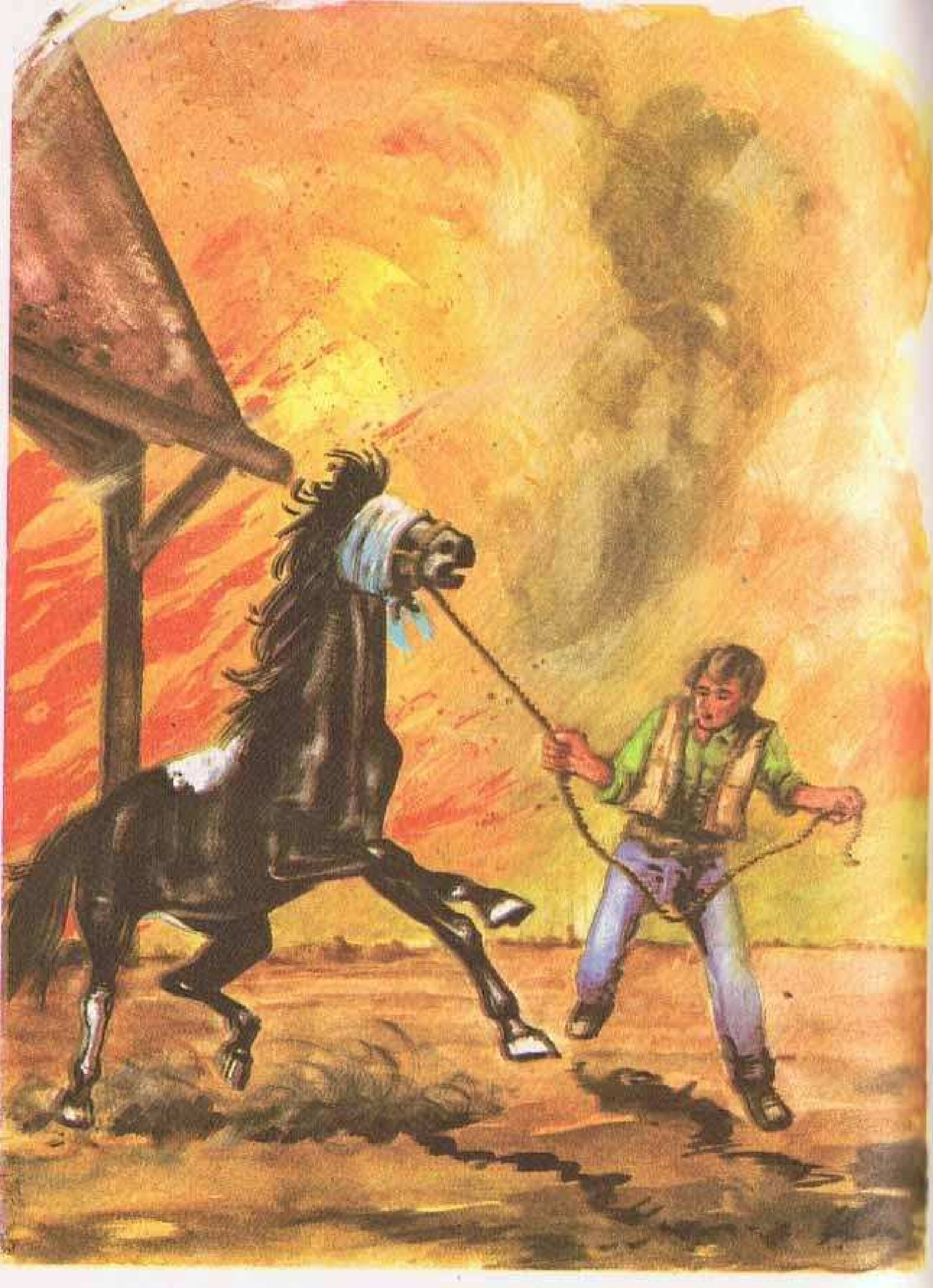
لَمْ يَكُنْ في آلمَزْرَعةِ أَحَدٌ يُدَخِّنُ على آلإطْلاقِ في آلحَظيرةِ ، أَمّا هُنا فكانَ هٰذا آلرَّجُلُ يُدَخِّنُ .

وَعِنْدَما أَدْخَلوا آلجَوادَ آلحَظيرةَ اقْتادوهُ إلى مَكانٍ لا طَعامَ فيهِ ، لِهٰذا فإنَّ سائِسَ آلحَظيرةِ خَرَجَ لِيُحْضِرَ لَهُ بَعْضَ آلطَّعامِ ، وَكانَ طَعامُ آلخَيْلِ يوضَعُ فَوْقَ سَطْحِ آلحَظيرةِ ، لِذا فَقَدْ صَعِدَ هٰذا آلسّائِسُ فَوْقَ آلحَظيرةِ ، وَأَحْضَرَ بَعْضَ آلطَّعامِ وَأَلْقاهُ لِلجَوادِ وَانْصَرَفَ .

نِمْتُ قَليلًا ، وَاسْتَيْقَظْتُ وَأَنا أَشْعُرُ بِبَعْضِ آلكآبةِ آلَّتي لَمْ أَعْرِفْ لها سَبَبًا ، وَسَمِعْتُ جِنْجَر تُحَرِّكُ قَوائِمَها ، ثُمَّ سَمِعْتُ أَنْفاسَها وَهِيَ تَتَشَمَّمُ في آلهَواءِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ شَمَمْتُ رائِحةَ دُخانٍ أَخَذَ يَتَزايَدُ حَتّى مَلَأَ آلحَظيرةَ كُلَّها . وَسَمِعْتُ صَوْتًا فَوْقَ رَأْسي ، وَكانَ صَوْتَ شَيْءٍ يَحْتَرِقُ .

في هٰذا آلوَقْتِ اسْتَيْقَظَتْ كُلُّ آلجِيادِ آلَّتي كانَتْ بِآلحَظيرةِ ، وَبَدَأَتْ تَتَحَرَّكُ في مُحاوَلةٍ مِنْها لِلهَرَبِ مِنْ هٰذا آلدُّخانِ ، وَشَعَرْتُ بِخَوْفٍ لَمْ أَعْرِفْ لَهُ مَثيلًا مِنْ قَبْلُ ، وَلا عَرَفْتُ لَهُ مَثيلًا مِنْ بَعْدُ .

أَخيرًا جاءَ سائِسُ آلفُنْدُقِ إلى آلحَظيرةِ ، وَحاوَلَ أَنْ يُخْرِجَ آلجِيادَ مِنْها ،



وَلٰكِنَّهُ كانَ بِدَوْرِهِ خائِفًا، وَ حاوَلَ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِسُرْعَةٍ مِمَّا زادَ مِنْ خَوْفِنا، حَتَّى إِنَّ كُلَّ ٱلجِيادِ حَرَنَتْ، وَ لَمَّا جاءَ إِلَيَّ حاوَلَ أَنْ يَجْذِبَني وَ يُخْرِجَني بِسُرْعَةٍ مِنَ ٱلحَظيرَةِ، وَ بَدَأَ يَجْذِبُ وَ يَجْذِبُ وَ لٰكِنِّي حَرَنْتُ.

كانَ تَصَرُّفًا غَبِيًّا مِنَّا، وَ لٰكِنَّنا لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ هٰذا ٱلسّائِسَ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ كانَ هُوَ نَفْسُهُ خائِفًا.

ازْدادَتْ كَثافَةُ ٱلدُّخانِ بِٱلحَظيرَةِ، ثُمَّ رَأَيْنا أَلْسِنَةَ ٱلنّارِ ٱلحَمْراءَ تَمْتَدُّ مِنَ ٱلسَّطْحِ فَوْقَ رُؤُوسِنا، وَ سَمِعْنا مَنْ يَصْرُخُ: «ٱلنّارَ! ٱلنّارَ!» وَ أَقْبَلَتْ إِلى ٱلحَظيرَةِ جُموعٌ مِنَ ٱلرِّجالِ.

اشْتَدَّ تَأَجُّجُ ٱلنّيرانِ. وَ جاءَ جيمْس نَحْوَ رَأْسي، وَ بَدَأَ يُحَدِّثُني كَما كانَ يُحَدِّثُني في ٱلصَّباحِ فَقالَ: «هَيّا أَيُّها ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ! هَيّا بِنا نَنْصَرِفْ! لا تَخَفْ، وَسِرْ مَعي! وَ سُرْعانَ ما سَنَخْرُجُ مَعًا بَعيدًا عَنْ هٰذا ٱلدُّخانِ.»

وَرَفَعَ قِطْعَةً مِنَ ٱلقُماشِ عَنْ رَقَبَتِهِ وَ لَفَّها حَوْلَ رَأْسي فَغَطَّتْ عَيْنَيَّ؛ وَلَمْ أَعُدْ أَرى ٱلنّارَ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ أَعُدْ أَشْعُرُ بِالْخَوْفِ. وَاسْتَمَرَّ يُرَبِّتُ عَلى ظَهْري وَيَتَحَدَّثُ إِلَيَّ حَديثَ ٱلصَّديقِ إِلى ٱلصَّديقِ حَتَّى خَرَجْنا مَعًا إِلى ٱلهَواءِ ٱلنَّقِيِّ خارِجَ ٱلحَظيرَةِ.

صاحَ جيمْس مُنادِيًا: «فَلْيَأْتِ إِلَيَّ أَحَدٌ وَ يَأْخُذْ هٰذا ٱلجَوادَ حَتَّى أَذْهَبَ وَأُخْرِجَ بَقِيَّةَ ٱلجِيادِ.»

جاءَ رَجُلٌ ضَخْمُ ٱلجُثَّةِ وَاصْطَحَبَني، وَراحَ جيمْس يَجْري عائِدًا إِلى

ٱلحَظيرةِ ، وَ لَمْ أكُنْ سَعيدًا على ٱلإطْلاقِ لِرُؤْيَتي جيمْس يَعودُ إلى ٱلحَظيرةِ ٱلَّتي اشْتَعَلَتْ بها ٱلنّارُ ، فَأخَذْتُ أصْهِلُ . وَ أبْلَغَتْني جِنْجَر في ٱليَوْمِ ٱلتّالي أنَّ صَهيلي هٰذا هُوَ ٱلَّذي أنْقَذَها ، لِأنَّها سَمِعَتْني وَ أنا أصْهِلُ خارِجَ ٱلحَظيرةِ ؛ وَلَمّا كانَتْ على قَدْرٍ مِنَ ٱلشَّجاعةِ فَإنَّها خَرَجَتْ مَعَ جيمْس .

كانَتِ ٱلأحْداثُ ٱلكَثيرةُ تَتَوالَى حَوْلي ، وَكُنْتُ أنْظُرُ طَوالَ ٱلوَقْتِ إلى بابِ ٱلحَظيرةِ ٱلَّتي كانَتْ تَنْبَعِثُ مِنها ٱلنّيرانُ ، وَيَتَصاعَدُ مِنْها ٱلدُّخانُ ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ أشْياءَ تَتَساقَطُ .

أقْبَلَ سَيِّدي يَجْري نَحْوَ ٱلحَظيرةِ وَ يُنادي قائِلًا : « جيمْس ! جيمْس هَوارْد ! هَلْ أنْتَ هُناكَ ؟ »

لَمْ يَسْمَعْ سَيِّدي جَوابًا ، وَ لٰكِنَّني سَمِعْتُ أصْواتًا تَدُلُّ على أنَّ هُناكَ أشْياءَ تَتَساقَطُ داخِلَ ٱلحَظيرةِ ، وَ شَعَرْتُ بِخَوْفٍ شَديدٍ على جيمْس وَ جِنْجَر .

وَكَمْ سَعِدْتُ ، عِنْدَما شاهَدْتُ جيمْس يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلنّيرانِ وَمَعَهُ جِنْجَر مُتَّجِهَيْنِ نَحْوَنا ، وَصاحَ ٱلسَّيِّدُ فَرِحًا : « يا لَكَ مِنْ شُجاعٍ ! » ثُمَّ سَأَلَهُ : « هَلْ أُصِبْتَ ؟ »

لَمْ يَسْتَطِعْ جيمْس ٱلكَلامَ بِسَبَبِ ٱلدُّخانِ ، وَلٰكِنَّهُ أشارَ بِما يُفْهَمُ مِنْهُ أنَّهُ لَمْ يُصَبْ ، وَ رَبَّتَ على رَقَبةِ جِنْجَر في سَعادةٍ .

ٱلفَصْلُ ٱلتّاسِعُ

جُوْ غرِيْن ٱلصَّغيرُ

عانَى كُلٌّ مِنْ جيمْس وَ جِنْجَر مِنَ ٱلألَمِ طَوالَ ٱليَوْمِ ٱلتّالي ، فَقَدْ أُصيبا بِحُروقٍ في أجْزاءٍ عَديدةٍ مِنْ جِسْمَيْهِما . وَ أضَرَّ بِهِما ٱلدُّخانُ ، لِذا بَقينا في ذٰلِكَ ٱلفُنْدُقِ طَوالَ ٱليَوْمِ . وَبَعْدَ أنْ قَضَيْنا لَيْلةً أُخْرى تَحَسَّنَ حالُهُما ، فَتَوَجَّهْنا إلى ٱلمَدينةِ ٱلمُجاوِرةِ في ٱلصَّباحِ .

لَقَدْ فَعَلَ جيمْس ما في اسْتِطاعَتِهِ لِمُساعَدةِ جِنْجَر حَتّى يَتَحَسَّنُ حالُها ، وَ اسْتَشار بَعْضَ سُوّاسِ ٱلخَيْلِ مِمَّنْ لَدَيْهِم خِبْرةٌ أكْبَرُ في رِعايةِ ٱلخَيْلِ ، فَأمَدُّوهُ بِٱلنُّصْحِ وَ أرْشَدوهُ إلى ما يَجِبُ أنْ يَفْعَلَهُ لِرِعايَتِها . وَ عِنْدَما عُدْنا إلى ٱلمَزْرَعةِ كُنّا جَميعًا في حالةٍ أفْضَلَ بِكَثيرٍ .

اسْتَمَعَ جُون إلى ٱلقِصّةِ ٱلَّتي رَواها جيمْس هَوارْد ، ثُمَّ نَظَرَ إلَيَّ وَإلى جِنْجَر وَ قالَ لِجيمْس : « لَقَدْ أحْسَنْتَ صُنْعًا يا جيمْس . إنَّهُ مِنَ ٱلصَّعْبِ إخْراجُ ٱلجِيادِ مِنَ حَظيرةٍ تَحْتَرِقُ . إنَّ أحَدًا لا يَعْرِفُ لِماذا تَرْفُضُ ٱلجِيادُ أنْ تَتْرُكَ مَكانَها ، خاصَّةً إذا لَمْ يَكُنْ هُناكَ شَخْصٌ تَعْرِفُهُ يَتَوَلّى قِيادَتَها وَ إخْراجَها مِنَ ٱلحَظيرةِ ، شَخْصٌ تَعْرِفُهُ وَ تُحِبُّهُ . »

عِنْدَ خُروجِهِما مِنَ ٱلمَزْرَعةِ قالَ جيمْس لِجون : « هَلْ تَعْرِفُ مَنْ سَيَحُلُّ مَحَلّي ؟ »

أجابَهُ جُون : « نَعَمْ إنَّهُ جُو غرِين ٱلصَّغيرُ ، ابْنُ ٱلبُسْتانِيِّ . »

«جُوْ غرِيْن ٱلصَّغيرُ ؟! وَلٰكِنَّهُ طِفْلٌ !»

«إنَّهُ يَبْلُغُ مِنَ ٱلعُمْرِ أَرْبعةَ عشَرَ عامًا .»

«وَلٰكِنَّهُ صَغيرٌ جِدًّا !»

«إنَّهُ صَغيرٌ وَلٰكِنَّهُ سَريعُ ٱلحَرَكةِ ، وَلَدَيْهِ استِعْدادٌ لِلتَّعلُّمِ . كَما أَنَّهُ عَطُوفٌ ، وَسَيَسْعَدُ والِدُهُ عِنْدَما يَحْضُرُ لِيَعْمَلَ هُنا . وَأَعْرِفُ أَنَّ ٱلسَّيِّدَ غُورْدُون يَوَدُّ ذٰلِكَ .»

اسْتاءَ جيمْس مِنْ هٰذا ٱلمَوْضوعِ وَقالَ : «إنَّهُ غُلامٌ لا بَأْسَ بِهِ ، وَلٰكِنْ سَيَكونُ عَلَيْكَ أَنْ تَقومَ بِٱلكَثيرِ مِنَ ٱلأَعْمالِ لِأَنَّهُ مازالَ صَغيرًا .»

قالَ جُون : «حَسَنٌ ، إنَّني أُحِبُّ ٱلعَمَلَ ، وَما كُنْتُ أَخافُ يَوْمًا مِنْ كَثْرةِ ٱلعَمَلِ .»

قالَ جيمْس : «أَعْرِفُ ذٰلِكَ وَسأُحاوِلُ دائِمًا أَنْ أَكونَ مِثْلَكَ .»

في ٱليَوْمِ ٱلتَّالي جاءَ جُوْ إلى ٱلحَظيرةِ حَتَّى يَتَعَلَّمَ مِنْ جيمْس قَدْرَ اسْتِطاعَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَتْرُكَ جيمْس ٱلعَمَلَ . فَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُنَظِّفُ ٱلحَظيرةَ ، وَكَيْفَ يُطْعِمُنا ، وَبَدَأَ يُنَظِّفُ أَطْقُمَ جَرِّ ٱلعَرَباتِ ، وَيُعاوِنُ في غَسْلِ ٱلعَرَباتِ وَتَنْظيفِها . وَلٰكِنَّهُ كانَ أَصْغَرَ مِنْ أَنْ يُنَظِّفَ جِسْمي وَجِسْمَ جنجر بِٱلفِرْجَوْنِ ، لِذا عَلَّمَهُ جيمْس كَيْفَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مَعَ مِريلِغز ٱلَّذي لَمْ يَسْعَدْ بِهٰذا ، فَكانَ يَقولُ : «لِماذا تُتْرَكُ شُؤُوني في يَدِ صَبِيٍّ لا يَعْرِفُ شَيْئًا ؟»

وَلٰكِنَّهُ عادَ يَقولُ بَعْدَ أُسْبوعٍ : «أَعْتَقِدُ أَنَّ هٰذا ٱلصَّبِيَّ سَوْفَ يَتَعَلَّمُ ٱلكَثيرَ ، وَسَوْفَ أُساعِدُهُ عَلى أَنْ يَتَعَلَّمَ بِسُرْعةٍ .»

كانَ جُوْ غرِيْن ٱلصَّغيرُ صَبيًّا مَرِحًا ، وَكانَ يُغَنِّي دائِمًا أَثْناءَ ٱلعَمَلِ . وَسَرْعانَ مابَدأَ يَحْظَى بِقَدْرٍ كَبيرٍ مِنْ حُبِّنا .

ٱلفَصلُ ٱلعاشِرُ

زيارةُ ٱلطَّبيبِ

كانَتِ ٱلحَظيرةُ مُزَوَّدةً بِجَرَسٍ يُسْتَخْدَمُ لِاسْتِدْعاءِ ٱلسّائِسِ إلى ٱلمَنْزِلِ . وَفي إحْدَى ٱللَّيالي ، بَعْدَ أنِ انصَرَفَ جيمْس ، رَنَّ هٰذا ٱلجَرَسُ ، فَأَيْقَظَني رَنينُهُ . وَسَمِعْتُ صَوْتَ خُطواتِ جُون وَهُوَ يَجْري نَحْوَ ٱلبَيْتِ ، ثُمَّ وَهوَ يَعْدو عائِدًا إلى ٱلحَظيرةِ ، وَيَفْتَحُ بابَها . وَتَوَجَّهَ نَحْوي وَأَيْقَظَني قائِلًا : « يَجِبُ أَنْ نُسْرِعَ عَلى ٱلفَوْرِ . »

وَضَعَ ٱلسَّرْجَ عَلى ظَهْري بِسُرْعةٍ ، وَقادَني إلى ٱلبَيْتِ ، حَيْثُ كانَ ٱلسَّيِّدُ يَقِفُ بِٱلبابِ مُمْسِكًا بِمِصْباحٍ ، وَقالَ لِجُون : « اِذْهَبْ يا جُون بِٱلجَمالِ ٱلأَسْوَدِ إلى ٱلمَدينةِ ، وَبِأَقْصَى ما يَسْتَطيعُ مِنْ سُرْعةٍ . وَسَلِّمِ ٱلطَّبيبَ هوايْت هٰذِهِ ٱلرِّسالةَ ، وَعُدْ بِهِ فَوْرًا لِأَنَّ زَوْجَتي مَريضةٌ جِدًّا . »

تناوَلَ جُون ٱلرِّسالةَ ، وَانْطَلَقْنا . وَكانَ ٱلوَقْتُ لَيْلًا ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ ٱلطَّريقَ ، وَكانَ خالِيًا مِنَ ٱلنّاسِ ٱلَّذينَ كانُوا قَدْ آوَوْا إلى فِراشِهِمْ . وَانْطَلَقْتُ أَعْدو كَما لَمْ أَعْدُ في حَياتي مِنْ قَبْلُ .

عِنْدَما وَصَلْنا إلى ٱلجِسْرِ جَذَبَ جُون ٱلعِنانَ قَليلًا ، فَعَبَرْتُهُ رَكْضًا . وَهُنا لَمْ يَطْلُبْ مِنّي جون أَنْ أَعْدوَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَلٰكِنَّني عَدَوْتُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي لِنَصْعَدَ تِلالًا وَنَهْبِطَ أُخْرَى ، مارَّيْنِ في ٱلطَّريقِ بِٱلحُقولِ وَٱلمَنازِلِ حَتَّى وَصَلْنا إلى ٱلمَدينةِ .

تَوَقَّفْتُ أَمامَ مَنْزِلِ ٱلطَّبيبِ ٱلَّذي فَتَحَ نافِذَتَهُ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ وَقْعَ حَوافِري عَلى حِجارةِ ٱلطَّريقِ . وَأَطَلَّ مِنَ ٱلنّافِذةِ وَسَأَلَ جُون : « ماذا تُريدُ ؟ »

أَجابَهُ جُون : « إنَّ زَوْجةَ ٱلسَّيِّدِ غوردُون مَريضةٌ جِدًّا ، وَيُريدُكَ سَيِّدي أَنْ تَأْتيَ مَعي عَلى ٱلفَوْرِ . إنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّها سَوْفَ تَموتُ إنْ لَمْ تَحْضُرْ لِتَراها . وَإلَيْكَ رِسالَتَهُ . »

قالَ ٱلطَّبيبُ : « سَوْفَ أَنْزِلُ حالًا . » وَأَغْلَقَ نافِذَتَهُ ، وَنَزَلَ إلَيْنا ، وَأَخَذَ ٱلرِّسالةَ وَقَرَأَها ثُمَّ قالَ :

« نَعَمْ يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ فَوْرًا . وَلٰكِنَّني لا أَدْري ماذا أَفْعَلُ ، فَجَوادي ٱلعَجوزُ كانَ يَعْمَلُ طَوالَ ٱليَوْمِ وَلا يَسْتَطيعُ أَنْ يُسْرِعَ بي إلَيْها ، وَجَوادِيَ ٱلآخَرُ مَريضٌ . ماذا أَفْعَلُ ؟ هَلْ لي أَنْ آخُذَ جَوادَكَ ؟ »

أَجابَ جُون : « لَقَدْ قَطَعَ هٰذا ٱلحِصانُ ٱلرِّحلةَ عَدْوًا ، وَلٰكِنَّني أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَعودَ بِكَ إلى هُناكَ . »

قالَ ٱلطَّبيبُ : « سَأَكونُ مُسْتَعِدًّا حالًا . »

عادَ إلى داخِلِ ٱلبَيْتِ ، وَوَقَفَ جُون إلى جِواري وَرَبَّتَ عَلى رَقَبَتي ، وَكانَ جَسَدي ساخِنًا . وَخَرَجَ ٱلطَّبيبُ مُرْتَدِيًا مَلابِسَ ٱلرُّكوبِ وَفي يَدِهِ سَوْطٌ ، فقالَ لَهُ جُون :

« لَسْتَ في حاجةٍ إلى اسْتِعْمالِ هٰذا ٱلسَّوْطِ . إنَّ ٱلجَمالَ ٱلأَسْوَدَ سَوْفَ يُسْرِعُ بِك قَدْرَ اسْتِطاعَتِهِ . »

شَكَرَهُ ٱلطَّبيبُ وَأَعْطاهُ ٱلسَّوْطَ ، وَتَحَدَّثَ إلَيَّ قائِلًا : « وَٱلآنَ أَيُّها ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ – هَيَّا بِنا . »

اَلفصلُ الحادِيَ عشَرَ

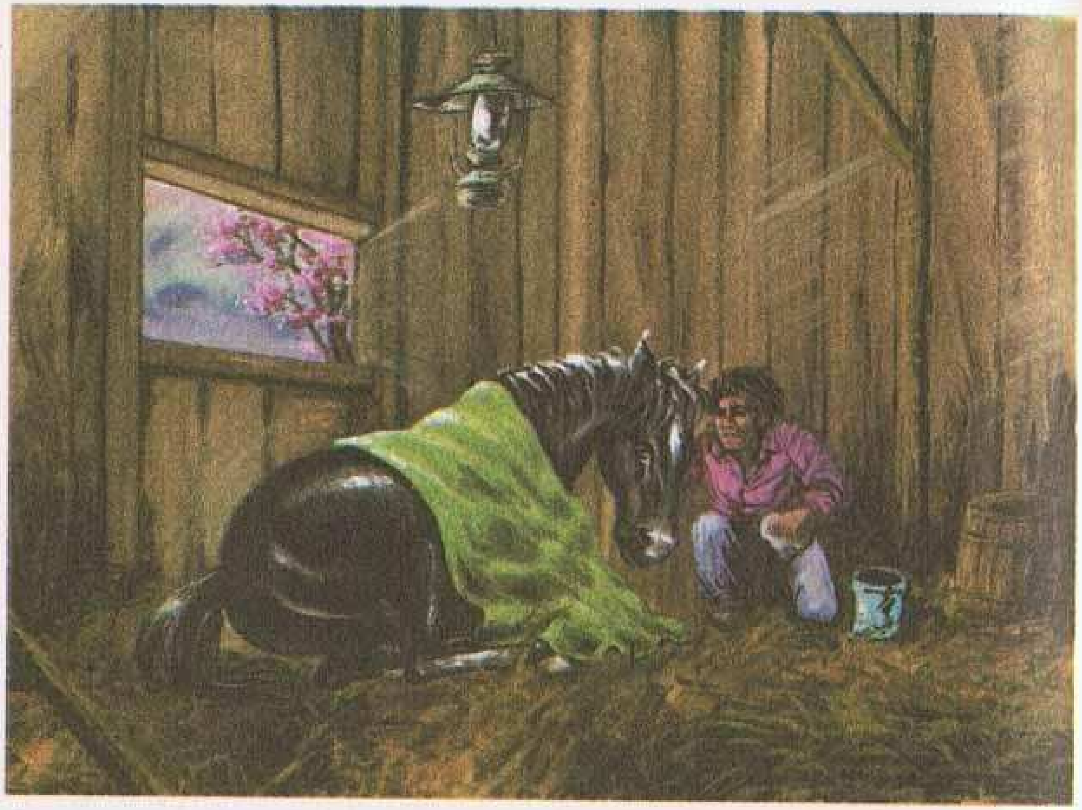
إنْقاذُ السَّيِّدةِ

كانَ الطَّبيبُ أَضْخَمَ مِنْ جُون ، وَلَمْ يَكُنْ يُجيدُ رُكوبَ الخَيْلِ . غَيْرَ أَنِّي بَذَلْتُ قُصارى جَهْدي حَتّى كِدْتُ – عِنْدَ وُصولي إلى المَزْرَعةِ – أَسْقُطُ مِنَ الإعْياءِ ؛ وَلٰكِنَّنا وَصَلْنا بِسُرْعةٍ بالِغةٍ . وَقَدْ سَمِعَنا سَيِّدي عِنْدَ وُصولِنا فاتَّجَهَ إلى البابِ وَاصْطَحَبَ الطَّبيبَ إلى داخِلِ البَيْتِ عَلى الفَوْرِ .

كانَ جُوْ غرِيْن الصَّغيرُ يَنْتَظِرُ بِالبابِ أَيْضًا ، وَعادَ بي إلى الحَظيرةِ . وَشَعَرْتُ بِالسَّعادةِ لِعَوْدَتي إلى بَيْتي . وَكانَ جِسْمي ساخِنًا جِدًّا ، وَكانَ العَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْهُ وَيَنْسابُ عَلى قَوائِمي ، فَقَدْ رَكَضْتُ بِأَسْرَع مااسْتَطَعْتُ ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَنْشِقُ مايَكْفِيني مِنَ الهَواءِ .

مِسْكينٌ جُوْ غرِيْن ! كانَ صَغيرًا ضَئيلَ الجِسْمِ ، وَلَمْ يَتَّسِعْ لَهُ الوَقْتُ لِيَتَعَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَكانَ يُمْكِنُ لِوالِدِهِ أَنْ يُساعِدَهُ إلّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَوْجودًا في ذٰلِكَ الوَقْتِ .

رَغْمَ ذٰلِكَ فَقَدْ عَمِلَ جُوْ غرِيْن كُلَّ ما في اسْتِطاعَتِهِ مَعي ، فَقامَ بِتَدْليكِ قَوائِمي وَأَجْزاءٍ مِنْ جِسْمي ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَضَعِ الغِطاءَ عَلَيَّ ، إذِ اعْتَقَدَ أَنَّ جِسْمي ساخِنٌ وَأَنَّني لَسْتُ بِحاجةٍ إلى هٰذا الغِطاءِ ، وَأَتى لي بِكَمِّيَّةٍ مِنَ الماءِ لِأَشْرَبَ . وَكانَ الماءُ بارِدًا وَمُنْعِشًا فَشَرِبْتُهُ كُلَّهُ ، ثُمَّ قَدَّمَ لِيَ الطَّعامَ قائِلًا : «الآنَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَنامَ .» ثُمَّ تَرَكَني وَانْصَرَفَ .



عِنْدَما وَصَلَ جُون وَجَدَني مَريضًا . وَكانَ قَدْ عادَ سائِرًا عَلى قَدَمَيْهِ ، وَلٰكِنَّهُ جاءَ لِيَراني فَوْرَ عَوْدَتِهِ إلى البَيْتِ . وَكُنْتُ راقِدًا عَلى الأَرْضِ ، فَجَلَسَ إلى جانِبي وَقالَ لي :

«أَيُّها المِسْكينُ ، ماذا فَعَلْنا بِكَ ؟»

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُخْبِرَهُ بِحالي وَلٰكِنَّهُ عَرَفَ بِنَفْسِهِ ، فَغَطّاني بِغِطاءَيْنِ أَوْ ثَلاثةٍ ، وَأَسْرَعَ إلى البَيْتِ لِيُحْضِرَ بَعْضَ الماءِ السّاخِنِ وَيُعِدَّ لي شَرابًا مُناسِبًا . وَكانَ يَقولُ غاضِبًا : «يالَهُ مِنْ غُلامٍ غَبِيٍّ ! لَمْ يُغَطِّ الجَوادَ بِأَيِّ

غِطاءٍ ، وَقَدَّمَ لَهُ ماءً بارِدًا لِيَشْرَبَهُ ! »

عانَيْتُ مِنَ ٱلمَرَضِ أَكْثَرَ مِن أُسْبوعٍ . وَكانَ جون يَقْضي مَعي عِدَّةَ ساعاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَأْتي لِيَراني مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثَ مَرّاتٍ كُلَّ لَيْلَةٍ . وَكانَ ٱلسَّيِّدُ غُورْدُون يَأْتي إِلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ أَيْضًا . وَذاتَ يَوْمٍ قالَ لي : « يا جَوادِيَ ٱلجَميلَ ، لَقَدْ أَنْقَذْتَ زَوْجَتي . نَعَمْ ،لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتَها ! »

وَكَمْ سَعِدْتُ لِسَماعِ هٰذِهِ ٱلكَلِماتِ ، فَقَدْ كُنّا جَميعًا نُحِبُّ زَوْجَةَ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون .

حَتَّى ٱلطَّبيبُ هوايْت جاءَ بِنَفْسِهِ لِيَزورَني ذاتَ مَرَّةٍ أَثْناءَ وُجودِهِ في ٱلمَزْرَعةِ ، وَرَبَّتَ عَلَيَّ وَهوَ يَقولُ لِجون : « إِنَّ ٱلفَضْلَ في بَقاءِ زَوْجةِ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون على قَيْدِ ٱلحَياةِ لِلْيَوْمِ إِنَّما يَرْجِعُ إِلى هٰذا ٱلجَوادِ ٱلجَميلِ ٱلَّذي أَحْضَرَني إِلى هُنا بِسُرْعَةٍ . »

سَمِعْتُ جون يَقولُ لِلسَّيِّدِ غُورْدُون : « لَمْ أَرَ في حَياتي جَوادًا يَعْدو بِمِثْلِ ٱلسُّرْعَةِ ٱلَّتي كانَ يَعْدو بِها ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ ، حَتَّى إِنَّني ظَنَنْتُ أَنَّهُ كانَ يَعْرِفُ حَقيقَةَ ٱلأَمْرِ . »

كُنْتُ أَعْرِفُ بِٱلفِعْلِ حَقيقَةَ ٱلأَمْرِ ، إِذْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ آخُذَ جون إِلى هُناكَ بِأَسْرَعِ ما أَسْتَطيعُ ، وَأَنَّ ذٰلِكَ كانَ مِنْ أَجْلِ زَوْجَةِ سَيِّدي ٱلعَزيزَةِ .

ٱلفَصْلُ ٱلثّاني عَشَر
اِنْتِقالٌ آخَرُ

كُنْتُ سَعيدًا طَوالَ إِقامَتي في ٱلمَزْرَعةِ لِمُدَّةِ عامٍ آخَرَ ، حَتَّى حَدَثَ شَيْءٌ أَحْزَنَني : لَقَدْ تَحَسَّنَتْ صِحَّةُ زَوْجةِ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون ، غَيْرَ أَنَّها لَمْ تَسْتَرِدَّ صِحَّتَها إِلَّا لِبِضْعةِ أَسابيعَ قَليلةٍ ، فَنَصَحَ ٱلطَّبيبُ بِأَنْ تَذْهَبَ لِتَعيشَ في مِنْطَقةٍ جافَّةٍ جَنوبَ فَرَنْسا . وَأَعْلَنَ ٱلسَّيِّدُ غُورْدُون عَنْ عَزْمِهِ على ٱلاِنْتِقالِ مِنَ ٱلمَزْرَعةِ إِلى هُناكَ .

حَزِنّا جَميعًا لِسَماعِ ذٰلِكَ ٱلخَبَرِ ، وَكانَ ٱلسَّيِّدُ غُورْدُون نَفْسُهُ يَبْدو غَيْرَ سَعيدٍ ، إِلّا أَنَّهُ بَدَأَ يُجْري ٱلاِسْتِعْداداتِ ٱللّازِمَةَ لِلاِنْتِقالِ . وَسَمِعْنا ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلأَحاديثِ ٱلَّتي كانَتْ تَدورُ في ٱلحَظيرةِ حَوْلَ هٰذا ٱلمَوْضوعِ . وَحَزِنَ جون حُزْنًا شَديدًا ، وَتَوَقَّفَ جُوْ تَقْريبًا عَنِ ٱلغِناءِ أَثْناءَ ٱلعَمَلِ كَعادَتِهِ .

وَذاتَ يَوْمٍ جاءَتِ ابْنَتا ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون لِرُؤْيةِ ٱلفَرَسِ مِريلِغز لِآخِرِ مَرَّةٍ قَبْلَ رَحيلِهِما ، وَبَكَيَتا طَويلًا ، وَقالَتا لَهُ :

« سَوْفَ تَكونُ سَعيدًا يا صَديقَنا ٱلعَجوزَ . إِنَّ والِدَنا سَيُعْطيكَ ٱلسَّيِّدَ غود جارَنا ، وَسَتَقومُ بِحَمْلِ زَوْجَتِهِ مِنْ مَكانٍ لِآخَرَ ، وَلٰكِنَّكَ لَنْ تَقومَ بِأَيَّةِ أَعْمالٍ شاقَّةٍ . وَسَوْفَ يُرافِقُكَ جُوْ ، وَسَيَكونُ ٱلسّائِسَ ٱلمَسْئولَ عَنْكَ هُناكَ . وَسَوْفَ تَرى أَيْضًا ٱلجَمالَ ٱلأَسْوَدَ وَجِنْجَر بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ ، فَقَدْ باعَهُما والِدُنا إِلى لُورْد وِيسْتلانْد صاحِبِ ٱلمَزْرَعَةِ ٱلمُجاوِرةِ لَنا . »

أَبْدى آلسَّيِّدُ غورْدُون اسْتِعْدادَهُ لِمُساعَدةِ جُون في آلحُصولِ على عَمَلٍ في مَكانٍ مُناسِبٍ . وَلٰكِنَّ جُون رَغِبَ في افْتِتاحِ مَدْرسةٍ لِتَدْريبِ صِغارِ آلخَيْلِ ، وَقالَ :

«إنَّ آلكَثيرَ مِنَ آلخَيْلِ تَتَدَرَّبُ بِطَريقةٍ مُخيفةٍ . إنَّ آلخَيْلَ أَصْدِقائي ، وَهِيَ تُحِبُّني ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّها سَوْفَ تَتَعَلَّمُ بِشَكْلٍ أَفْضَلَ إذا تَوَلّى تَعْليمَها شَخْصٌ رَفيقٌ بِها ؛ وَسَوْفَ أُعَلِّمُ آلخَيْلَ بِطَريقَتي آلخاصَّةِ . »

عَلَّقَ آلسَّيِّدُ غورْدُون قائِلًا : «أَنا لا أَعْرِفُ أَحَدًا أَفْضَلَ مِنْكَ في آلقِيامِ بِهٰذا آلعَمَلِ ؛ فَآلخَيْلُ لا تَميلُ إلَيْكَ فَحَسْبُ ، بَلْ إنَّها تُحِبُّكَ حُبًّا جَمًّا ، وَإنْ كانَ يُحْزِنُني أَنْ أَفْقِدَ صَديقًا مِثْلَكَ . »

أُخيرًا جاءَ يَوْمُنا آلأَخيرُ هُناكَ في آلمَزْرَعةِ ، فَتَوَلَّيْتُ أَنا وَ جِنْجَر جَرَّ آلعَرَبةِ إلى آلبَيْتِ لِآخِرِ مَرَّةٍ . وَقَدْ وَقَفَ كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ بِآلبَيْتِ عِنْدَ آلبابِ في آلوَقْتِ آلَّذي نَزَلَ فيهِ آلسَّيِّدُ غورْدُون حامِلًا زَوْجَتَهُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَانْخَرَطوا جَميعًا في آلبُكاءِ عِنْدَما تَحَرَّكْنا مُبْتَعِدينَ عَنِ آلبَيْتِ .

اَلفَصْلُ آلثّالِثَ عَشَرَ

مَزْرَعةُ آللّورد

جاءَ جُوْ في آليَوْمِ آلتّالي لِيَرانا ، وَ اصْطَحَبَ مِريلِغز إلى مَنْزِلِ عائِلةِ غود ، وَ رَكِبَ جُون جِنْجَر وَ قادَني إلى مَزْرَعةِ آللّورد . كانَ بِآلمَزْرَعةِ بَيْتٌ كَبيرٌ . وَ عِنْدَ وُصولِنا إلى آلحَظائِرِ سأَلَ جُون عَنِ آلسَّيِّدِ يورْك رَئيسِ آلسّائِقينَ وَ آلعامِلينَ بِآلحَظائِرِ . وَ لَمّا تَقَدَّمَ نَظَرَ إلَيْنا وَ قالَ لِجُون :

«إنَّ آلجَوادَيْنِ يَبْدوانِ في حالةٍ طَيِّبةٍ . وَ لٰكِنَّ آلجِيادَ يَخْتَلِفُ دائِمًا بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ . هَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَني عَنْ هٰذَيْنِ آلجَوادَيْنِ ؟ »

قالَ جُون : « حَسَنًا ! لَيْسَ هُناكَ أَفْضَلُ مِنْهُما في كُلِّ أَنْحاءِ آلبِلادِ ، وَ لٰكِنَّ كُلًّا مِنْهُما يَخْتَلِفُ عَنِ آلآخَرِ . فَآلجَمالُ آلأَسْوَدُ مَثَلًا لا يَعْرِفُ آلغَضَبَ أَوِ آلخَوْفَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ عامَلَهُ أَحَدٌ بِقَسْوةٍ طَوالَ حَياتِهِ . أَمّا جِنْجَر فَلَمْ يَكُنْ هٰذا حالُها عِنْدَما جِئْنا بِها أَوَّلَ مَرَّةٍ . كانَتْ تَميلُ دائِمًا لِلْعَضِّ وَ آلرَّفْسِ ، إذْ يَبْدو أَنَّها عاشَتْ حَياةً تَعِسةً قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إلَيْنا . أَمّا آلآنَ فَإنَّها قَدْ تَغَيَّرَتْ كَثيرًا في مَزْرَعةِ آلسَّيِّدِ غورْدُون . فَقَدْ كُنّا نُعامِلُها دائِمًا بِرِفْقٍ ، لِهٰذا كانَتْ على ما يُرامُ طَوالَ آلسَّنَواتِ آلثَّلاثِ آلماضيةِ . وَ لٰكِنّي أَخْشى أَنْ تَعودَ إلى حالَتِها آلسَّيِّئةِ آلَّتي كانَتْ عَلَيْها إذا عومِلَتْ مُعامَلةً قاسيةً مَرَّةً أُخْرى . »

قالَ يورْك : « سَوْفَ أَحْرِصُ عَلى أَنْ أَتَذَكَّرَ هٰذا دائِمًا وَ لٰكِنَّ عِنْدي عَدَدًا كَبيرًا مِنَ آلسُّوّاسِ وَ آلسّائِقينَ وَ لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُراقِبَهُمْ كُلَّهُمْ طَوالَ آلوَقْتِ . »

عِندَما هَمَّ جون بِالانصِرافِ قالَ لِلسَّيِّدِ يورْك : « أَوَدُّ أَنْ أُعَرِّفَكَ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَنا أَنِ اسْتَخْدَمْنا في مَزْرَعَةِ السَّيِّدِ غورْدُون ذٰلِكَ النَّوْعَ مِنْ سُيورِ اللِّجامِ الَّذي يَرْبُطُ شَكيمةَ الجَوادِ وَيَشُدُّها إلى السَّرْج . لِأَنَّ ذٰلِكَ يُضايِقُ الجَوادَ ، وَإنْ كانَ يَجْعَلُهُ يَبْدو أَجْمَلَ شَكْلًا . »

قالَ يورْك : « وَلٰكِنَّنا نَسْتَخْدِمُ هٰذا النَّوْعَ مِنْ سُيورِ اللِّجامِ هُنا ، وَإِنْ كُنْتُ أَنا شَخْصِيًّا لا أُحِبُّهُ . وَلورد وِيسْتلانْد رَفيقٌ بِالجِيادِ ، وَلٰكِنَّ السَّيِّدَةَ زَوْجَتَهُ تَخْتَلِفُ عَنْهُ . فَهِيَ تُحِبُّ أَنْ تَرى كُلَّ شَيْءٍ في أَجْمَلِ صُورَةٍ ، لِهٰذا فَإِنَّها تُصِرُّ عَلى اسْتِخْدامِ هٰذا النَّوْعِ مِنْ سُيورِ اللِّجامِ في جِيادِ عَرَبَتِها ، لِأَنَّها تَجْعَلُ رُؤُوسَ الجِيادِ مَرْفوعةً دائِمًا ، فَضْلًا عَنْ أَنَّ هٰذِهِ هِيَ الطَّريقةُ المُتَّبَعةُ هُنا مَعَ الجِيادِ . وَلِهٰذا فَإِنَّهُ لا مَفَرَّ مِنَ اسْتِخْدامِهِ . »

تَقَدَّمَ جون نَحْوَنا وَرَبَّتَ عَلى كُلٍّ مِنّا ، وَتَكَلَّمَ مَعَنا بَعْضَ الوَقْتِ لِآخِرِ مَرَّةٍ ثُمَّ انْصَرَفَ . وَقَدْ حَزِنّا جِدًّا لِفِراقِهِ .

في اليَوْمِ التّالي جاءَ لورْد وِيسْتلانْد لِيَرانا . قالَ لِيورْك : « إِنَّ غورْدُون قالَ لي إِنَّهُما جَوادانِ مُمْتازانِ ، وَهُما يَبْدُوانِ كَذٰلِكَ بِالفِعْلِ . وَلٰكِنَّنا لا نَسْتَطيعُ أَنْ نَجْعَلَ العَرَبةَ يَجُرُّها جَوادانِ أَحَدُهُما أَسْوَدُ وَالآخَرُ بُنِّيُّ اللَّوْنِ . قَدْ يَكونُ هٰذا لائِقًا هُناكَ ، أَمّا هُنا فَلا نَسْتَطيعُ أَنْ نَرْكَبَ العَرَبةَ عَلى هٰذا النَّحْوِ . »

قالَ لَهُ يورْك إِنَّ جون قَدْ كَلَّمَهُ بِشَأْنِ ذٰلِكَ النَّوْعِ مِنْ سُيورِ اللِّجامِ الَّذي يُثَبِّتُ الشَّكيمةَ بِالسَّرْج . فَأَجابَهُ اللّورْد وِيسْتلانْد قائِلًا :

« حَسَنًا ، اِسْتَخْدِمْ هٰذِهِ السُّيورَ مَعَ الجَوادَيْنِ ، وَلٰكِنِ ارْفَعْها بَيْنَ وَقْتٍ

وَآخَر ، وَسَوْفَ أَتَكَلَّمُ مَعَ زَوْجَتي بِشَأْنِها . »

بَعْدَ الظُّهْرِ تَمَّ تَجْهيزُنا وَرَبْطُنا بِالسُّيورِ في العَرَبةِ ، ثُمَّ قادَنا السّائِسُ إلى واجِهةِ المَنْزِلِ . وَكانَ مَنْزِلًا كَبيرًا جِدًّا ، وَأَكْبَرَ مِنْ مَنْزِلِ السَّيِّدِ غورْدُون كَثيرًا ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يُعْجِبْني .

خَرَجَتْ زَوْجةُ اللّورْد وِيسْتلانْد مِنَ البَيْتِ وَدارَتْ حَوْلَنا تَنْظُرُ إِلَيْنا . وَيَبْدو أَنَّ شَيْئًا ما أَثارَ اسْتِياءَها ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَقُلْ شَيْئًا ، بَلْ صَعِدَتْ إلى العَرَبةِ . وَلَمَسَنا يورْك بِطَرَفِ السَّوْطِ فَانْطَلَقْنا نَسيرُ بِالعَرَبةِ .

لَمْ يَسْبِقْ أَنِ اسْتُخْدِمَ هٰذا النَّوْعُ مِنْ سُيورِ اللِّجامِ مَعي ، وَأَعْني بِهِ تِلْكَ الَّتي تَرْبُطُ الشَّكيمةَ بِالسَّرْج . وَلٰكِنْ عَلى أَيَّةِ حالٍ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ بالِغَ السُّوءِ ، وَكُنْتُ أَسيرُ أَوْ أَرْكُضُ مَرْفوعَ الرَّأْسِ بِفِعْلِ تِلْكَ السُّيورِ ، إِلّا أَنَّها لَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ لي بِأَنْ أُخْفِضَ رَأْسي . وَكُنْتُ أَخْشى أَنْ تَغْضَبَ جِنْجَر ، وَلٰكِنَّها كانَتْ عَلى ما يُرامُ .

في نَفْسِ المَوْعِدِ في اليَوْمِ التّالي وَقَفْنا مَرَّةً أُخْرى أَمامَ البَيْتِ ، وَعِنْدَما خَرَجَتِ السَّيِّدةُ لِتَرْكَبَ العَرَبةَ قالَتْ لِيورْك :

« عَلَيْكَ يا يورْك أَنْ تَشُدَّ السُّيورَ بِحَيْثُ يَرْتَفِعُ رَأْسا الجَوادَيْنِ لِأَعْلى . إِنَّني لَنْ أَرْكَبَ عَرَبةً تَجُرُّها جِيادٌ بِهٰذا الشَّكْلِ . »

نَزَلَ يورْك مِنَ العَرَبةِ قائِلًا : « أَرْجو أَلّا تَغْضَبي مِنّي يا سَيِّد . إِنَّ هٰذَيْنِ الجَوادَيْنِ لَمْ يَعْتادا هٰذا النَّوْعَ مِنَ السُّيورِ مِنْ قَبْلُ ، كَما أَنَّ اللّورْد ِ سْتلانْد

طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُخَفِّفَ مِنْ رَبْطِ آلسُّيورِ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ . هَلْ تَرْغَبينَ في أَنْ أَشُدَّها أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ؟ »

أَجابَتْ : « نَعَمْ . »

تَقَدَّمَ يورْك نَحْوَ رَأْسَيْنا ، وَقَصَّرَ آلسُّيورَ بِمَسافَةِ ثَقْبٍ واحِدٍ عَلى ما أَعْتَقِدُ .

وَعِنْدَما وَصَلْنا إلى أَحَدِ آلتِّلالِ رَغِبْنا في أَنْ نَخْفِضَ رَأْسَيْنا قَليلًا حَتَّى نَسْتَطيعَ جَرَّ آلعَرَبةِ بِقُوَّةٍ أَكْثَرَ ، إِلَّا أَنَّ هٰذِهِ آلسُّيورَ حالَتْ دونَ ذٰلِكَ ، مِمَّا أَلْقى بِكُلِّ آلعِبْءِ عَلى ظَهْرَيْنا وَقَوائِمِنا ، فَقالَتْ لي جِنْجَر :

« هَلْ تَرى كَيْفَ صارَتِ آلأُمورُ ؟ إِنَّ آلأَمْرَ بالِغُ آلسُّوءِ . إِنْ كَفُّوا عَنْ شَدِّ هٰذِهِ آلسُّيورِ ، فَلَنْ أُظْهِرَ اسْتِياءً ، لِأَنَّهُمْ يُبْدونَ كَثيرًا مِنَ آلعَطْفِ عَلَيْنا هُنا ، أَمَّا إذا شَدُّوها أَكْثَرَ فَإِنَّني سَوْفَ أَتَصَرَّفُ تَصَرُّفًا سَيِّئًا . أَنا لا أُريدُ أَنْ أَكونَ شِرِّيرةً ، وَلٰكِنَّ هٰذِهِ آلسُّيورَ تُثيرُ غَضَبي جِدًّا . »

الفَصْلُ آلرَّابِعَ عَشَرَ

جِنْجَر تَبْدَأُ في آلرَّفْسِ

ذاتَ يَوْمٍ أَقْبَلَتْ زَوْجةُ آللّورد وِيسْتلانْد وَهِيَ تَرْتَدي مَلابِسَ فاخِرةً ، وَقالَتْ لِيورْك :

« قُدِ آلعَرَبَةَ إلى مَنْزِلِ آللّيدي رِيتْشْمُونْد . » وَلٰكِنَّها لَمْ تَصْعَدْ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى آلعَرَبةِ بَلْ قالَتْ : « أَلَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا حَتَّى يُصْبِحَ رَأْسا هٰذَيْنِ آلجَوادَيْنِ مَرْفوعَيْنِ ؟ اِفْعَلْ شَيْئًا . عَلَيْكَ أَنْ تَشُدَّ هٰذِهِ آلسُّيورَ عَلى آلفَوْرِ . »

تَقَدَّمَ يورْك إِلَيَّ أَوَّلًا ، وَجَذَبَ رَأْسي إلى آلخَلْفِ ، فَآلَمَتْني آلسُّيورُ في رَقَبَتي ، وَجَرَحَتِ آلشَّكيمةُ فَمي . ثُمَّ اتَّجَهَ إلى جِنْجَر وَبَدَأَ يَفْعَلُ نَفْسَ آلشَّيْءِ مَعَها ، إِلَّا أَنَّها شَبَّتْ واقِفةً عَلى قائِمَتَيْها آلخَلْفِيَّتَيْنِ ، وَأَرْجَعَتْ أُذُنَيْها إلى آلخَلْفِ ، وَامْتَلَأَتْ عَيْناها بِآلغَضَبِ آلشَّديدِ ، ثُمَّ بَدَأَتْ تَرْفُسُ ، بَلْ وَحاوَلَتِ آلإِفْلاتَ مِنَ آلعَرَبةِ . وَلَمْ يُفْلِحْ يورْك وَآلسَّائِسُ في إيقافِها . وَأَخيرًا اِشْتَبَكَتْ قَوائِمُها في آلعِنانِ فَسَقَطَتْ عَلى آلأَرْضِ . وَعِنْدَئِذٍ جَلَسَ يورْك عَلى رَأْسِ جِنْجَر وَنادى آلسَّائِسَ لِيُحْضِرَ لَهُ سِكِّينًا حَتَّى يَقْطَعَ بِها آلسُّيورَ . وَعادَتْ زَوْجةُ آللّورْد وِيسْتلانْد أَدْراجَها إلى داخِلِ آلمَنْزِلِ .

أُصيبَتْ جِنْجَر في عِدَّةِ مَواضِعَ مِنْ جِسْمِها ، وَكانَتْ غاضِبةً كُلَّ آلغَضَبِ وَمُسْتَعِدَّةً لِلرَّفْسِ وَآلعَضِّ . وَلَمْ يَتَّسِعِ آلوَقْتُ لِأَحَدٍ لِيَهْتَمَّ بِأَمْري ، فَظَلَلْتُ في مَكاني فَتْرةً طَويلةً وَرَأْسي مَشْدودٌ لِلْخَلْفِ ، وَآلشَّكيمةُ تُؤْلِمُني في فَمي ، حَتَّى جاءَ يورْك أَخيرًا وَفَكَّ هٰذِهِ آلسُّيورَ وَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قائِلًا :

«لِماذا يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَسْتَخْدِمَ هٰذِهِ ٱلسُّيورَ ؟ إِنَّها تُسيءُ إِلى ٱلجِيادِ ، فَضْلًا عَنْ أَنَّها تَجْعَلُ مُهِمَّتَنا شاقَّةً ، كَما أَنَّ ٱللّورْد وِيسْتلانْد سَوْفَ يَسْتاءُ مِنّي لا لِشَيْءٍ إِلّا لِأَنَّني نَفَّذْتُ تَعْليماتِ ٱلسَّيِّدَةِ زَوْجَتِهِ . وَلٰكِنْ كَيْفَ لي أَنْ أَعْصِيَ لَها أَمْرًا ؟»

لَمْ تُسْتَخْدَمْ جِنْجر لِجَرِّ ٱلعَرَبَةِ بَعْدَ ذٰلِكَ طَوالَ وُجودِها في مَزْرَعَةِ ٱللّورْد وِيسْتلانْد . فَعِنْدَما تَحَسَّنَ حالُها أَخَذَها أَصْغَرُ أَبْناءِ ٱللّورْد لِيَرْكَبَها .

أَمّا أَنا فَظَلَلْتُ أَعْمَلُ في جَرِّ ٱلعَرَبَةِ طَوالَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ . وَكانَتْ تِلْكَ ٱلسُّيورُ تُؤْلِمُني يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ . وَكانَ يُزامِلُني في ٱلعَمَلِ جَوادٌ عَجوزٌ اِسْمُهُ ماكْس أَحْضَروهُ مِنْ حَظائِرِ ٱللّورْد وِيسْتلانْد ٱلأُخْرى . وَسَأَلْتُ ماكْس ذاتَ يَوْمٍ : «لِماذا عَلَيْنا أَنْ نَتَحَمَّلَ هٰذا ٱلأَلَمَ ؟»

أَجابَني : «إِنَّ هٰذِهِ هِيَ طَريقَةُ سُكّانِ مَدينَةِ لَنْدَن . إِنَّهُمْ قَوْمٌ أَغْنِياءُ ، وَلِذا يَجِبُ أَنْ تَظَلَّ جِيادُ ٱلأَغْنِياءِ مَرْفوعَةَ ٱلرُّؤُوسِ . لَقَدْ تَسَبَّبَ هٰذا في مَرَضي ، وَسَأَموتُ قَريبًا ، بَلْ سَتَموتُ أَنْتَ أَيْضًا قَبْلَ أَنْ تُصْبِحَ عَجوزًا لَوِ اسْتَمَرّوا في اسْتِخْدامِ هٰذِهِ ٱلسُّيورِ مَعَكَ كُلَّ يَوْمٍ . إِنَّهُمْ حَمْقى ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟»

اَلفَصْلُ ٱلخامِسَ عَشَرَ

السّائِسُ رِيوبِن سميث

في شَهْرِ أَبْريل تَوَجَّهَ ٱللّورْد وِيسْتلانْد وَزَوْجَتُهُ إِلى مَنْزِلِهِما في ٱلعاصِمَةِ لَنْدَن ، وَاصْطَحَبا مَعَهُما يورْك . أَمّا أَنا وَجِنْجر وَبَعْضُ ٱلجِيادِ ٱلأُخْرى فَبَقينا في ٱلمَزْرَعَةِ مَعَ أَبْنائِهِما وَأَصْدِقاءِ أَبْنائِهِما . وَعِنْدَما تَغَيَّبَ يورْك عَنِ ٱلحَظائِرِ تَوَلّى أَمْرَها شَخْصٌ يُدْعى رِيوبِن سميث ، وَكانَ سائِقًا مُمْتازًا وَسائِسًا ماهِرًا . كانَ يُحِبُّ الجِيادَ ، وَٱلجِيادُ تُحِبُّهُ ، وَلٰكِنْ لِماذا ظَلَّ يَعْمَلُ سائِسًا وَلَمْ يَعْمَلْ سائِقًا مِثْلَ يورْك ؟ هٰذا هُوَ ما أَخْبَرَني بِهِ ماكْس :

كانَتْ تَنْتابُ رِيوبِن سميث نَوْباتٌ عَصَبِيَّةٌ . أَمّا في ٱلأَوْقاتِ ٱلعادِيَّةِ ، فَإِنَّهُ يُؤَدّي عَمَلَهُ عَلى خَيْرِ وَجْهٍ . لَقَدْ كانَ يَتَمَتَّعُ بِحُبِّ ٱلجَميعِ ، أَمّا عِنْدَما تَنْتابُهُ هٰذِهِ ٱلنَّوْباتُ فَإِنَّهُ يُصْبِحُ شَخْصًا آخَرَ .

قالَ يَوْمًا لِيورْك : «إِنَّني لَنْ أَسْتَطيعَ أَنْ أَتَحَكَّمَ في نَفْسي عِنْدَما تُصيبُني هٰذِهِ ٱلنَّوْباتُ .» وَلِهٰذا كانَ يورْك يَخْشى أَنْ تُسْنَدَ إِلى سميث مُهِمَّةُ ٱلسّائِقِ ٱلأَوَّلِ بِٱلحَظائِرِ في ٱلأَوْقاتِ ٱلَّتي يَتَغَيَّبُ فيها .

ذاتَ يَوْمٍ رَغِبَ أَصْغَرُ أَبْناءِ ٱللّورْد وِيسْتلانْد في ٱلتَّوَجُّهِ إِلى لَنْدَن ، فَقالَ لِسميث : «سَوْفَ أَسْتَقِلُّ ٱلقِطارَ مِنْ هارتْفورْد ، وَأَوَدُّ أَنْ تَقودَ ٱلعَرَبَةَ وَتَأْخُذَني إِلى هُناكَ . وَسَوْفَ تَتْرُكُ ٱلعَرَبَةَ هُناكَ حَتّى يَتَوَلّى صانِعُ ٱلعَرَباتِ إِصْلاحَها وَتَرْكيبَ عَجَلَةٍ جَديدَةٍ بِها ؛ لِذا عَلَيْكَ أَنْ تُحْضِرَ مَعَكَ سَرْجًا آخَرَ حَتّى تَعودَ إِلى ٱلبَيْتِ مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ ٱلجَمالِ ٱلأَسْوَدِ .»

قادَني رِيُوبن سميث إلى صانِعِ ٱلعَرَباتِ ، ثُمَّ وَضَعَ ٱلسَّرْجَ على ظَهْري وَرَكِبَني لِأَذْهَبَ بِهِ إلى فُنْدُقٍ يُسَمَّى « فُنْدُقُ ٱلحِصانِ ٱلأَبْيَضِ » وَ هُناكَ طَلَبَ مِنَ ٱلسّائِسِ أَنْ يُقَدِّمَ لي طَعامًا جَيِّدًا . كَما طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُجَهِّزَني بِحَيْثُ أَكونُ مُسْتَعِدًّا لِلتَّحَرُّكِ في ٱلسّاعَةِ ٱلرّابِعَةِ . ثُمَّ شاهَدْتُهُ يَلْتَقي بِبَعْضِ أَصْدِقائِهِ ٱلقُدامى عِنْدَ بابِ ٱلفُنْدُقِ . لِذا فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنَ ٱلفُنْدُقِ في حَوالَى ٱلخامِسَةِ لِيُبْلِغَ ٱلسّائِسَ أَنَّهُ لَنْ يَنْصَرِفَ قَبْلَ ٱلسّادِسَةِ .

كانَ ٱلسّائِسُ قَدْ لاحَظَ أَنَّ ٱلنَّعْلَ (ٱلحَذْوَةَ) ٱلمُرَكَّبَةَ بِحافِري ٱلأَيْمَنِ ٱلأَماميِّ على وَشْكِ أَنْ تَسْقُطَ ، فَسَأَلَ رِيُوبن سميث إذا كانَ يَرْغَبُ في أَنْ يُغَيِّرَها لي فَقالَ لَهُ : « لا ! لا أَعْتَقِدُ أَنَّها سَوْفَ تَسْقُطُ قَبْلَ أَنْ نَعودَ إلى ٱلبَيْتِ . »

لَمْ يَكُنْ هٰذا ما تَعَوَّدْنا أَنْ نَسْمَعَهُ مِنْ رِيُوبن سميث . فَقَدْ كانَ يَحْرِصُ دائِمًا عَلى تَغْييرِ كُلِّ نَعْلٍ إذا اقْتَضى ٱلأَمْرُ ذٰلِكَ . كَما كانَ يَحْرِصُ دائِمًا عَلى أَنْ تَكونَ في حالَةٍ جَيِّدَةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ كَلِماتِهِ أَثارَتْ دَهْشَتي . وَقَدْ ضايَقَني هٰذا كَثيرًا .

لَمْ يُغادِرْ سميث ٱلفُنْدُقَ في ٱلسّادِسَةِ ، وَلا حَتّى في ٱلسّابِعَةِ أَوِ ٱلثّامِنَةِ ؛ وَإِنَّما خَرَجَ في ٱلتّاسِعَةِ وَسْطَ ضَوْضاءَ وَضَجيجٍ ، وَصاحَ بِٱلسّائِسِ طالِبًا مِنْهُ أَنْ يُحْضِرَ لَهُ جَوادَهُ . وَكانَ مُسْتاءً مِنَ ٱلسّائِسِ لِسَبَبٍ لَمْ أَتَبَيَّنْهُ ، وَغاضِبًا مِنْ كُلِّ مَنْ في ٱلفُنْدُقِ .

قَبْلَ أَنْ نَتْرُكَ ٱلمَدينَةَ بَدَأَ يَضْرِبُني بِٱلسَّوْطِ ، وَلَمْ يَكُفَّ عَنْ ضَرْبي حَتّى عِنْدَما بَدَأْتُ أَعْدو بِكُلِّ سُرْعَةٍ .

لَمْ يَطْلُعِ ٱلقَمَرُ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ ، لِذا كانَتِ ٱلدُّنْيا ظَلامًا ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَ طَريقي بِوُضوحٍ وَ كانَ مَمْلوءًا بِالحِجارَةِ ، وَ سَقَطَتِ ٱلنَّعْلُ (ٱلحَذْوَةُ) مِنّي . وَلَمْ يَكُفَّ سميث عَنْ ضَرْبي بِٱلسَّوْطِ ، أَوْ عَنِ ٱلصُّراخِ . وَلَمْ أُدْرِكِ ٱلسَّبَبَ في ذٰلِكَ : لا بُدَّ أَنَّ إِحْدَى ٱلنَّوْباتِ ٱلعَصَبِيَّةِ قَدِ ٱنْتابَتْهُ ٱلآنَ وَإِلّا كانَ أَدْرَكَ أَنَّ ٱلنَّعْلَ قَدْ سَقَطَتْ مِنّي .

كانَ ٱلطَّريقُ وَعْرًا ، وَرَغْمَ هٰذا جَعَلَني أَعْدو بِأَقْصَى سُرْعَةٍ . وَكانَتِ ٱلأَحْجارُ تَجْرَحُ قَوائِمي ، وَخاصَّةً تِلْكَ ٱلَّتي سَقَطَتْ مِنْها ٱلنَّعْلُ .

أَخيرًا وَقَعْتُ عَلى ٱلأَرْضِ . وَلَمّا كُنْتُ في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ أَعْدو بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، فَقَدْ طارَ سميث مِنْ فَوْقِ رَأْسي ، وَسَقَطَ عَلى ٱلأَرْضِ دونَ حَراكٍ ، وَرَغْمَ أَنَّ قَوائِمي قَدْ أُصيبَتْ بِسَبَبِ سُقوطي إِلّا أَنَّني نَهَضْتُ واقِفًا وَٱنْتَحَيْتُ جانِبَ ٱلطَّريقِ ، وَوَقَفْتُ مُنْتَظِرًا .



اَلفَصْلُ ٱلسَّادِسَ عَشَرَ

سُوقُ ٱلجِيادِ

وَقَفْتُ في مَكاني مُنْتَظِرًا فَتْرَةً طَويلَةً ، حَتَّى سَمِعْتُ أَخيرًا ماكس قادِمًا يَجُرُّ ٱلعَرَبَةَ ذاتَ ٱلعَجَلَتَيْنِ ، فَنادَيْتُهُ وَ أَجابَني . وَ كانَ بِٱلعَرَبَةِ اثْنانِ مِنْ عُمَّالِ ٱلحَظيرَةِ قَدِما لِلْبَحْثِ عَنْ سميث ، فَقَفَزَ أَحَدُهُما وَ ٱتَّجَهَ إلى حَيْثُ كانَ سميث يَرْقُدُ بِلا حَراكٍ عَلى قارِعَةِ ٱلطَّريقِ ، وَ قالَ : « إِنَّهُ سميث ، وَ جَسَدُهُ بارِدٌ . إِنَّه مَيِّتٌ ! »

أَمَّا زَميلُهُ فَنَزَلَ مِنَ ٱلعَرَبَةِ وَٱتَّجَهَ نَحْوي ، وَ عَلى ضَوْءِ مَصابيحِ ٱلعَرَبَةِ شاهَدَ ٱلجُروحَ ٱلبَليغَةَ ٱلَّتي أَصابَتْ قَوائِمي ؛ فَقالَ : « لَقَدْ سَقَطَ ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ . إِنَّنا ما كُنَّا نَظُنُّ يَوْمًا أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَسْقُطَ أَرْضًا ، فَماذا حَدَثَ ؟ »

حاوَلَ أَنْ يَقودَني نَحْوَ ٱلعَرَبَةِ وَلٰكِنَّي كِدْتُ أَنْ أَقَعَ مَرَّةً أُخْرى ، فَقالَ لِزَميلِهِ : « إِنَّ قَدَمَ ٱلجَمالِ ٱلأَسْوَدِ في حالَةٍ بالِغَةِ ٱلسُّوءِ . أُنْظُرْ ! لَيْسَ بِها نَعْلٌ . إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَبيعَةِ سميث أَنْ يَرْكَبَ جَوادًا بِلا نَعْلٍ . أَخْشى أَنْ يَكونَ قَدْ أُصيبَ بِنَوْبَةٍ عَصَبِيَّةٍ في طَريقِ عَوْدَتِهِ . »

حَمَلا جُثَّةَ رِيوبِن سميث إلى ٱلعَرَبَةِ ذاتِ ٱلعَجَلَتَيْنِ ، وَ تَوَلَّى أَحَدُهُما قِيادَةَ ٱلعَرَبَةِ إلى مَزْرَعَةِ ٱللّورد . أَمَّا ٱلرَّجُلُ ٱلثَّاني فَقَدْ لَفَّ قَدَمي ٱلمُصابَةَ بِقِطْعَةٍ مِنَ ٱلقُماشِ ، وَ قادَني لِأَسيرَ فَوْقَ ٱلجانِبِ ٱلمُعْشِبِ مِنَ ٱلطَّريقِ . وَ كانَتِ ٱلجُروحُ ٱلَّتي في قَوائِمي تُؤْلِمُني طَوالَ ٱلوَقْتِ لٰكِنِّي وَصَلْتُ في ٱلنِّهايَةِ إلى ٱلبَيْتِ .

كانَ عُمَّالُ ٱلحَظيرَةِ يَبْذُلونَ كُلَّ جَهْدِهِمْ لِمُساعَدَتي ، وَلٰكِنَّ حالَتي ٱلصِّحِّيَّةَ لَمْ تَتَحَسَّنْ لِعِدَّةِ أَسابيعَ ، وَ كانَتِ ٱلجُروحُ في حالَةٍ سَيِّئَةٍ . وَ لَمَّا تَمَكَّنْتُ مِنَ ٱلسَّيْرِ بَعْدَ ذٰلِكَ نَقَلُوني إلى حَقْلٍ صَغيرٍ ، وَهُناكَ – وَ بَعْدَ مُضِيِّ أَسابيعَ – طَرَأَ بَعْضُ ٱلتَّحَسُّنِ عَلى قَوائِمي . وَ في يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيّامِ جاءَ ٱللّورْدُ وِيسْتْلانْد وَ مَعَهُ يُورْك ، وَ نَظَرَ إلى قَوائِمي . وَ كانَتِ ٱلجُروحُ قَدْ تَحَسَّنَتْ إِلّا أَنَّها تَرَكَتْ بَعْضَ ٱلآثارِ .

سَأَلَ ٱللّورْدُ يُورْكَ : « أَلَنْ تَزولَ آثارُ هٰذِهِ ٱلجُروحِ أَبَدًا ؟ »

أَجابَهُ : « لا يا سَيِّدي لَنْ تَزولَ . »

اسْتاءَ ٱللّوردُ وَ قالَ : « يَجِبُ إِذًا أَنْ نَبيعَهُ ، فَأَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَحْتَفِظَ في حَظائِري بِجَوادٍ مُشَوَّهِ ٱلقَوائِمِ . إِنَّني حَزينٌ جِدًّا لِذٰلِكَ ، فَصَديقي غُورْدُون كانَ يَوَدُّ أَنْ يَجِدَ جَوادُهُ ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ ٱلسَّعادَةَ في بَيْتي ، وَهٰأَنَذا أَجِدُ نَفْسي مُضْطَرًّا إلى بَيْعِهِ . »

في ٱليَوْمِ ٱلَّذي تُقامُ فيهِ سُوقُ بَيْعِ ٱلجِيادِ أُخِذْتُ إلى هُناكَ ، حَيْثُ جاءَ ٱلكَثيرُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَ فَحَصُوني . وَقَدِ انْصَرَفَ ٱلأَغْنِياءُ مِنْهُمْ بِمُجَرَّدِ أَنْ لاحَظوا تِلْكَ ٱلآثارَ في قَوائِمي . وَ طافَ آخَرونَ حَوْلي ، وَ فَتَحوا فَمي ، وَ نَظَروا في عَيْنَيَّ ، وَ مَرُّوا بِأَيْديهِمْ عَلى قَوائِمي ، وَ جَعَلوني أَسيرُ وَ أَرْكُضُ . وَ كانَتْ أَيادي بَعْضِهِمْ قاسِيَةً عَلَيَّ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ بِٱلنِّسْبَةِ لَهُمْ سِوى حَيَوانِ شُغْلٍ . لٰكِنَّ آخَرينَ كَلَّموني وَ تَحَسَّسوني بِأَيْديهِمْ في رِفْقٍ وَ رَبَّتوا عَلَيَّ وَ حاوَلوا أَنْ يَعْرِفوا ٱلمَزيدَ عَنِّي .



وَقَدْ أَحْبَبْتُ رَجُلًا تَلَمَّسْتُ فِيهِ الرِّقَّةَ ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّني سأُكُونُ سَعيدًا مَعَهُ .

كانَتْ لِهٰذا الرَّجُلِ رائحةٌ ذَكِيَّةٌ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ ٱلخَيْلَ ، وَأَنَّهُ عَطُوفٌ عَلَيْها . وَكانَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلُ ضَئِيلَ ٱلجِسْمِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ سَرِيعَ ٱلحَرَكةِ ، تَشْعُرُ بِٱلْوُدِّ في لَمَساتِ يَدَيْهِ وَنَظَراتِ عَيْنَيْهِ .

قالَ ٱلرَّجُلُ : « سَأَدْفَعُ ثَلاثةً وَعِشْرِينَ جُنَيْهًا ثَمنًا لِهٰذا ٱلجَوادِ . »

لٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذي كانَ يَبِيعُني أَرادَ ٱلحُصولَ على ٱلمَزيدِ فَقالَ لَهُ : « إذا قُلْتَ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ كانَ ٱلجَوادُ لَكَ . »

قالَ ٱلرَّجُلُ ٱلضَّئِيلُ : « أَرْبَعةٌ وَعِشْرُونَ وَلَنْ أَزيدَ عَلَيْها . »

أَجابَهُ ٱلبائِعُ قائِلًا : « وَأَنا سَأَقْبَلُ مِنْكَ ٱلأَرْبَعةَ وَٱلعِشْرِينَ جُنَيْهًا ، وَسَتَكونُ بِذٰلِكَ قَدْ حَصَلْتَ عَلى جَوادٍ مُمْتازٍ مُقابِلَ نُقودِكَ ، خُصوصًا إذا كُنْتَ تَرْغَبُ في اسْتِخْدامِهِ لِجَرِّ عَرَباتِ ٱلرُّكوبِ ، فَإِنَّكَ سَتَجِدُ فيهِ ما يُرْضيكَ . »

بَعْدَ أَنْ دَفَعَ سَيِّدي ٱلجَديدُ ٱلنُّقودَ قادَني إلى أَحَدِ ٱلفَنادِقِ ، وَهُناكَ أَتَى لي بِسَرْجٍ وَقَدَّمَ لي طَعامًا جَيِّدًا . وَسِرْنا بَعْدَ ذٰلِكَ في طَريقِنا إلى لَنْدَن .

الفَصلُ السَّابِعَ عَشَرَ

جَوادُ جَرٍّ عَرَباتٍ في لَنْدَن

كانَتْ شَوارِعُ المَدينةِ الكَبيرةِ تَمْتَلِئُ بِالجِيادِ وَالعَرَباتِ ذَواتِ العَجَلَتَيْنِ ، وَكُلِّ ما يَخْطُرُ بِبالِكَ مِنْ وَسائِلِ النَّقْلِ . وَرَغْمَ أَنَّ الوَقْتَ كانَ لَيْلًا فَإِنَّني شاهَدْتُ عَلى ضَوْءِ المَصابيحِ بِالشَّوارِعِ مِنَ النّاسِ أَكْثَرَ مِمّا رَأَيْتُ طَوالَ حَياتي .

بَدَأْنا نَسيرُ في الشَّوارِعِ العَديدةِ بِالعاصِمةِ ، وَأُخيرًا صاحَ سَيِّدي يُحَيّي شَخْصًا : « سَعِدْتَ مَساءً أَيُّها النَّقيبُ . » وَكُنّا قَدْ وَصَلْنا إِلى أَحَدِ الشَّوارِعِ ، حَيْثُ شاهَدْتُ عَدَدًا مِنْ عَرَباتِ الرُّكوبِ تَقِفُ جَميعُها في الاِنْتِظارِ واحِدةً خَلْفَ الأُخْرى في مَوْقِفٍ لِعَرَباتِ الرُّكوبِ بِالأُجْرةِ .

رَدَّ هٰذا الشَّخْصُ الَّذي حَيّاهُ سَيِّدي قائِلًا : « أَهْلًا بِكَ يا جيري . هَلِ اشْتَرَيْتَ جَوادًا مُمْتازًا ؟ »

أَجابَهُ : « نَعَمْ ، أَعْتَقِدُ ذٰلِكَ . »

رَدَّ النَّقيبُ قائِلًا : « يُسْعِدُني سَماعُ ذٰلِكَ يا جيري . أَسْعَدَ اللهُ مَساءَكَ . »

سِرْنا في شارِعٍ جانِبِيٍّ ، وَمِنْهُ إِلى شارِعٍ آخَرَ بِهِ بَعْضُ البُيوتِ الصَّغيرةِ البَسيطةِ ، وَعَدَدٌ مِنَ الحَظائِرِ وَمَحالِّ العَرَباتِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ صاحِبي عِنْدَ بَيْتٍ مِنَ البُيوتِ الصَّغيرةِ ، وَنادى مُخاطِبًا سَيِّدةً ، قائِلًا : « أَمازِلْتِ مُسْتَيْقِظةً ؟ »



فُتِحَ البابُ وَخَرَجَتْ مِنْهُ امْرَأَةٌ شابَّةٌ وَمَعَها بِنْتٌ وَوَلَدٌ يَصيحانِ في فَرَحٍ مُرَحِّبَيْنِ بِسَيِّدي وَهوَ يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِ ظَهْري ، فَبادَلَهُمُ التَّحِيَّةَ وَقالَ : « هَيّا يا هاري افْتَحْ بابَ الحَظيرةِ حَتّى أُدْخِلَ الجَوادَ فيها . »

دَخَلْنا بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى حَظيرةٍ صَغيرةٍ ، وَكانَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ تُمْسِكُ مِصْباحًا بِيَدِها ، وَالجَميعُ يَنْظُرونَ إِلَيَّ ، ثُمَّ سَأَلَتِ البِنْتُ والِدَها قائِلةً : « هَلْ هوَ جَوادٌ مُمْتازٌ يا والِدي ؟ »

أَجابَها : « نَعَمْ يادوللي ، إِنَّهُ مُمْتازٌ مِثْلُكِ تَمامًا . رَبِّتي عَلَيْهِ . »

شَعَرْتُ بِيَدِ البِنْتِ الصَّغيرةِ تُرَبِّتُ عَلَيَّ ، وَلَمْ تَكُنْ تَخْشى مِنّي . وَأَدْرَكْتُ عِنْدَئِذٍ أَنَّني سَوْفَ أُحِبُّها .

قالَتِ ٱلمَرْأةُ : « سَوْفَ أُحضِرُ لَهُ بَعضَ الطَّعامِ اللَّذيذِ ، وَعَلَيْكُمْ أنْ تَقوموا بِتَدْليكِهِ . »

أجابَها جيري قائِلًا : « نَعَمْ هٰذا ما سَنَفْعَلُهُ جَميعًا . »

كانَ جيري يُحِبُّ زَوْجَتَهُ پولي ، وَابْنَهُ هاري ٱلَّذي كانَ في ٱلثَّانيةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَابْنَتَهُ دُوللي . وَكانَتْ في ٱلثَّامِنةِ مِنْ عُمْرِها . وَكانوا قَوْمًا فُقَراءَ ، لِأَنَّ أَصْحابَ عَرَباتِ ٱلرُّكوبِ لا يَكْسِبونَ إلَّا ٱلقَليلَ مِنَ ٱلمالِ . وَلٰكِنَّهُمْ كانُوا عَطُوفينَ وَدودِينَ .

كانَتْ لِجيري عَرَبَتُهُ ٱلخاصَّةُ وَجَوادانِ . وَكانَ أَحَدُهُما جَوادًا عَجوزًا أَبيضَ ٱللَّوْنِ يُدْعَى كابْتِن . وَفي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ حَكَى لي كابْتِن ٱلكَثيرَ عَنْ عَمَلِ جَوادِ جَرِّ عَرَباتِ ٱلرُّكوبِ في لَنْدَن ، فَقالَ لي : « لا يُسْتَخْدَمُ لِجَرِّ ٱلعَرَبةِ سِوَى جَوادٍ واحِدٍ في كُلِّ مَرَّةٍ . كَما أنَّ صاحِبَنا يَعْمَلُ سِتَّ عَشْرَةَ ساعةً في ٱليَوْمِ طَوالَ ٱلأُسْبوعِ عَدا أَيّامِ ٱلآحادِ . أَيْ أَنَّ كُلَّ جَوادٍ مِنّا يَعْمَلُ ثَمانيَ ساعاتٍ في ٱليَوْمِ . وَرَغْمَ مَشَقَّةِ ٱلعَمَلِ فَإنَّ سَيِّدي لا يَقْسو عَلَيْنا أَبَدًا . إنَّ هُناكَ ٱلعَديدَ مِنْ أَصْحابِ ٱلعَرَباتِ ٱلقُساةِ ، وَلٰكِنَّ جيري لَيْسَ واحِدًا مِنْهُمْ ، لِذا سَتُحِبُّهُ . »

خَرَجَ كابْتِن لِجَرِّ ٱلعَرَبةِ في ٱلصَّباحِ . وَلَمّا عادَ هاري مِنْ مَدْرَسَتِهِ قَدِمَ إلى ٱلحَظيرةِ ، وَقَدَّمَ لي بَعْضَ ٱلطَّعامِ وَٱلماءِ . وَعِنْدَما عادَ جيري إلى ٱلبَيْتِ لِتَناوُلِ غَدائِهِ تَوَلَّتْ زَوْجَتُهُ پولي تَنْظيفَ ٱلعَرَبةِ ، كَما عاوَنَ هاري

والِدَهُ في إعْدادِ وَتَرْكيبِ طَقْمِ جَرِّ ٱلعَرَباتِ فَوْقَ ظَهْري . وَقَدِ اسْتَغْرَقَ ذٰلِكَ مِنْهُما وَقْتًا طَويلًا .

وَلَمْ يَسْتَعْمِلا مَعي أَيَّ سُيورٍ مِنَ ٱلَّتي تَشُدُّني في ٱلسَّرْجِ ، كَما أَنَّ ٱلشَّكيمةَ لَمْ تُؤْلِمْني .

قالَ جيري : « أَظُنُّ أَنَّ ٱلجَوادَ سَعيدٌ بِهٰذا . »

سَأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ : « ما اسْمُ ٱلجَوادِ ؟ »

أجابَها جيري : « إنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذي باعَهُ لَمْ يَعْرِفْ لَهُ اسْمًا ، لِذا فَإنَّنا سَنُطْلِقُ عَلَيْهِ اسْمَ جاك مِثْلَ ٱلجَوادِ ٱلسّابِقِ يا پولي . »

بِهٰذا بَدَأَتْ عَمَلي كَجَوادٍ لِجَرِّ عَرَبةٍ لِلرُّكوبِ في لَنْدَن ، وَصارَ اسْمي جاك .

اَلفَصلُ ٱلثّامِنَ عشَرَ

جيري باركر

إنطَلَقْنا إلى طَريقٍ جانِبِيٍّ ، وَمِنْهُ تَوَجَّهْنا إلى مَوْقِفِ عَرَباتِ ٱلأُجْرَةِ . وَأَخذَ جيري مَكانَهُ في آخِرِ صَفٍّ عَرَباتِ ٱلأُجْرَةِ ٱلَّتي تَقِفُ في ٱنْتِظارِ دَوْرِها .

أَقْبَلَ رَجُلٌ ضَخْمُ ٱلجُثَّةِ يَعْمَلُ سائِقًا لإحْدَى عَرَباتِ ٱلأُجْرَةِ لِيُشاهِدَني ، وَكانَ مَعَهُ سائِقانِ آخَرانِ .

كانَ هٰذا ٱلرَّجُلُ هوَ مَنْ يُطْلِقونَ عَلَيْهِ لَقَبَ «ٱلنَّقيبِ» أَيْ أَقْدَمِ سائِقي عَرَباتِ ٱلأُجْرَةِ هُناكَ . وَنظَرَ ٱلرَّجُلُ إلَيَّ وَتَحَسَّسَ رَقَبَتي وَجِسْمي وَقوائِمي ، ثُمَّ قالَ :

«نَعَمْ ، هٰذا هوَ أَفْضَلُ ما يُناسِبُكَ مِنَ ٱلجِيادِ يا جيري باركَر . حَتَّى إذا كُنْتَ قَدْ دَفَعْتَ فيهِ مَبْلَغًا كَبيرًا ، فَإنَّكَ أَحْسَنْتَ صُنْعًا بِشِرائِهِ .»

وَجَدْتُ خِلالَ بِضْعَةِ أَيّامٍ أَنَّ ٱلعَمَلَ كَجَوادٍ يَجُرُّ عَرَبَةَ رُكوبٍ في مَدينَةِ لَنْدَن عَمَلٌ شاقٌّ . فَتِلْكَ ٱلمَدينَةُ ٱلواسِعةُ كانَتْ شَيْئًا جَديدًا بِٱلنِّسْبَةِ لي ، وَذٰلِكَ لِما فيها مِنْ ضَوْضاءٍ وَآلافٍ مِنَ ٱلنّاسِ وَٱلجِيادِ وَٱلعَرَباتِ ، وَكَثيرٍ مِنَ ٱلأَشْياءِ ٱلَّتي لَمْ أَشْعُرْ مَعَها بِٱلسَّعادةِ خِلالَ تَجَوالي بِٱلشَّوارِعِ . وَلٰكِنَّني تَبَيَّنْتُ أَنَّ جيري سائِقٌ مُمْتازٌ ، كَما أَنَّهُ لَمَسَ فِيَّ ٱسْتِعْدادًا لِلْعَمَلِ بِكُلِّ جِدٍّ . وَبِفَضْلِ هٰذا صارَتِ ٱلعَلاقَةُ بَيْنَنا عَلى ما يُرامُ .

لَمْ يَضْرِبْني جيري بِٱلسَّوْطِ أَبَدًا . وَكُلُّ ما كانَ يَفْعَلُهُ هوَ أَنْ يَلْمِسَني بِطَرَفِ ٱلسَّوْطِ فَقَطْ ، وَكَأَنَّهُ يَقولُ لي : «هَيَّا ٱنْطَلِقْ .»

وَكُنْتُ في مُعْظَمِ ٱلأَحْوالِ أَعْرِفُ ما يُريدُهُ مِنّي مِنَ ٱلطَّريقةِ ٱلَّتي يُحَرِّكُ بِها ٱلعِنانَ .

وَكُنْتُ أَحْظَى أَنا وَٱلجَوادُ كابْتِن بِكُلِّ عِنايةٍ ، فَكانَ جيري يُقَدِّمُ لَنا طَعامًا شَهِيًّا ، وَكانَتْ حَظيرَتُنا نَظيفَةً دائِمًا .

كانَ يَرْكَبُ ٱلعَرَبَةَ أَحْيانًا مَنْ يَطْلُبُ مِنْ جيري أَنْ يُسْرِعَ في سَيْرِهِ ، فَكانَ يُجيبُهُ دائِمًا بِقَوْلِهِ : «أَنْتَ تَوَدُّ أَنْ نُسْرِعَ لِأَنَّكَ كَسولٌ . كانَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَبْدَأَ رِحْلَتَكَ مُبَكِّرًا ، حَتَّى تَسْتَطيعَ أَنْ تَصِلَ في مَوْعِدِكَ دونَ حاجةٍ إلى أَنْ نُسْرِعَ بِكَ .»

لَمْ يَكُنْ جيري يَرْضَى أَنْ تُسْرِعَ جِيادُهُ في جَرْيِها لِيُساعِدَ هٰؤُلاءِ ٱلكَسالَى حَتَّى وَلَوْ عَرَضُوا عَلَيْهِ أَجْرًا أَكْبَرَ .

بَعْدَ أَنْ تَعَوَّدْتُ عَلى ٱلسَّيْرِ في شَوارِعِ لَنْدَن ، أَصْبَحْنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَنْطَلِقَ أَسْرَعَ مِنْ مُعْظَمِ عَرَباتِ ٱلرُّكوبِ ٱلأُخْرَى إذا أَرَدْنا .

كانَ جيري يَقولُ لي وَهوَ يُرَبِّتُ عَلَيَّ : «نَحْنُ عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِأَنْ نُسْرِعَ إذا ٱقْتَضَى ٱلأَمْرُ ذٰلِكَ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ يا جاك ؟»

كانَ يَعْرِفُ أَسْرَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلمُؤَدِّيَةِ إلى ٱلمُسْتَشْفَياتِ في لَنْدَن وَكُنّا في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ نَقْطَعُ ٱلطَّريقَ إلى تِلْكَ ٱلمُسْتَشْفَياتِ في سُرْعَةٍ بالِغةٍ .

في يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيَّامِ ٱلمَطيرةِ ، وَبَعْدَ أَنْ أَوْصَلْنا أَحَدَ ٱلرُّكَّابِ إلى ٱلفُنْدُقِ ٱلَّذي يَنْزِلُ بِهِ ، تَقَدَّمَتْ سَيِّدةٌ شابَّةٌ يَبْدو عَلَيْها ٱلفَقْرُ إلى جيري وَتَحَدَّثَتْ مَعَهُ . وَكانَتِ ٱلسَّيِّدةُ تَحْمِلُ صَبيًّا بَيْنَ ذِراعَيْها ، وَكانَتْ عَلَيْهِ أَماراتُ ٱلمَرَضِ ٱلشَّديدِ . سَأَلَتْ جيري قائِلةً :

«هَلْ لَكَ أَنْ تُرْشِدَني إلى ٱلطَّريقِ ٱلمُؤَدِّي إلى مُسْتَشْفَى ٱلأَطْفالِ ؟ لَقَدْ قَدِمْتُ لِتَوِّي مِنَ ٱلرِّيفِ ، وَلا أَعْرِفُ ٱلكَثيرَ عَنِ العاصِمةِ ، وَمَعي تَقْريرُ ٱلطَّبيبِ لِأُقَدِّمَهُ لِمُسْتَشْفَى ٱلأَطْفالِ . وَقَدْ قالَ لي إنَّ هٰذا ٱلمُسْتَشْفَى قَدْ يَسْتَطيعُ أن يُنْقِذَ ابْني .»

أجابَها جيري : «إنَّ ٱلمَسافةَ إلى ٱلمُسْتَشْفَى طَويلةٌ وَلا تَسْتَطيعينَ أَنْ تَقْطَعيها سَيْرًا على ٱلأَقْدامِ في هٰـذا ٱلجَوِّ ٱلمَطيرِ وَأَنْتِ تَحْمِلينَ هٰذا الصَّبيَّ بَيْنَ ذِراعَيْكِ . اصْعَدي إلى ٱلعَرَبةِ ، وَسَأَنْقُلُكِ إلى ٱلمُسْتَشْفَى .»

قالَتِ ٱلسَّيِّدةُ ٱلشّابَّةُ : «شُكْرًا لَكَ ، وَلٰكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَرْكَبَ ٱلعَرَبةَ ، إذْ لَيْسَ مَعي نُقودٌ لِأَدْفَعَها لَكَ .»

قالَ جيري : «مَنْ ذَكَرَ لَكِ شَيْئًا عَنِ ٱلنُّقودِ ؟ إنَّني أَبٌ ، وَأُحِبُّ ٱلأَطْفالَ . وَعِنْدَما أَقومُ بِنَقْلِكِ ، سَيَكونُ في هٰـذا ما يُسْعِدُني . أَرْجو أَنْ تَرْكَبي ٱلعَرَبةَ .»

ساعَدَ جيري ٱلسَّيِّدةَ على ٱلصُّعودِ إلى ٱلعَرَبةِ . وَكانَتْ تَبْكي ، فَأَخَذَ يُرَبِّتُ على كَتِفِها مُهَدِّئًا ، ثُمَّ صَعِدَ إلى مَكانِهِ بِٱلعَرَبةِ وَأَمْسَكَ بِٱلعِنانِ قائِلًا : «لِنَنْطَلِقْ يا جاك .»

عِنْدَما وَصَلْنا إلى ٱلمُسْتَشْفَى ساعَدَ جيري ٱلسَّيِّدةَ ٱلشّابَّةَ على ٱلنُّزولِ مِنَ ٱلعَرَبةِ وَٱلدُّخولِ مِنَ ٱلبابِ ٱلأَماميِّ ٱلكَبيرِ لِلْمُسْتَشْفَى .

قالَتِ ٱلسَّيِّدةُ لِجيري : «أَشْكُرُكَ ! أَشْكُرُكَ ! إنَّكَ رَجُلٌ طَيِّبُ ٱلقَلْبِ، وَرَحيمٌ .»

في تِلْكَ ٱللَّحْظةِ خَرَجَتْ إحْدَى ٱلسَّيِّداتِ مِنَ ٱلمُسْتَشْفَى وَسَمِعَتْ كَلِماتِ ٱلسَّيِّدةِ ٱلشّابَّةِ فَتَطَلَّعَتْ إلى ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلرَّحيمِ ، وَما إنْ رَأَتْهُ حَتَّى صاحَتْ : « جيري بارْكَر !»

اَلفصلُ ٱلتّاسعَ عشَرَ

تَغيُّرٌ آخَرُ

قُمْنا بِنَقْلِ تِلْكَ ٱلسَّيِّدةِ إلى مَحطَّةِ ٱلسِّكَّةِ ٱلحديدِ لِتَرْكَبَ ٱلقِطارَ وَهِيَ تُدعى فاوْلَر . وَقَدْ عَرَفَتْ تِلْكَ ٱلسَّيِّدةُ جيرِي لِأَنَّ زَوْجَتَهُ پُولي كانَتْ تَعْمَلُ بِمَنْزِلِها في ٱلرِّيفِ . وَبَدَأَتْ هٰذِهِ ٱلسَّيِّدةُ تَسْأَلُهُ عَنْ زَوْجَتِهِ وَعَنِ ابْنِهِ هارِي وَابْنَتِهِ ثُمَّ سَأَلَتْهُ : « كَيْفَ حالُكَ يا جيرِي ؟ أَلا يَزالُ ٱلبَرْدُ يُؤْذيكَ شِتاءً ؟ »

أجابَها : « نَعَمْ ، مازالَ ٱلبَرْدُ يُسبِّبُ لِيَ ٱلمَرَضَ ، وَقَدْ مَرِضْتُ مَرَضًا شَديدًا في شَهْرِ يَنايِر ٱلماضِي . »

قالَتْ لَهُ ٱلسَّيِّدةُ فاوْلَر : « عَلَيْكَ أَنْ تَبْحَثَ لِنَفْسِكَ عَنْ عَمَلٍ آخَرَ ياجِيرِي . إِنَّكَ لَمْ تَعُدْ تَصْلُحُ لِلعَمَلِ سائِقًا لِعَرَباتِ ٱلأُجْرةِ . »

أجابَها : « إِنَّني أَوَدُّ أَنْ أَجِدَ لِنَفْسي عَمَلًا في ٱلرِّيفِ ، فَهوَ أَنْسَبُ لِپُولي وَابْني وَابْنَتي ، وَلٰكِنْ لَيْسَ أَمامي ٱلكَثيرُ مِنْ فُرَصِ ٱلعَمَلِ بِٱلرِّيفِ . »

كانَ جيرِي يَعْتَلُّ شِتاءً ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكُفُّ عَنِ ٱلعَمَلِ ، وَكانَ هٰذا يَزيدُ مِنْ مَرَضِهِ . وَكانَتْ زَوْجَتُهُ تَبْكي كَثيرًا لِهٰذا ٱلسَّبَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَتِها أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا .

وَبَعْدَ أَنْ أَمْضَيْتُ خَمْسَ سَنَواتٍ في ٱلعَمَلِ كَحِوادٍ لِجَرِّ عَرَباتِ ٱلرُّكوبِ في ٱلعاصِمةِ ، حَدَثَ ذاتَ يَوْمٍ أَنْ تَلَقَّتْ پُولي رِسالةً مِنَ ٱلسَّيِّدةِ فاوْلَر كانَ نَصُّها ما يَلي :

« عَزيزَتي پُولي :

إِنَّ ٱلسّائِسَ ٱلَّذي يَعْمَلُ عِنْدي قَدْ وَجَدَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا آخَرَ ، وَيَوَدُّ أَنْ يَلْتَحِقَ بِعَمَلِهِ ٱلجَديدِ اعْتِبارًا مِنْ أَوَّلِ ٱلشَّهْرِ ٱلقادِمِ ، كَما أَنَّ زَوْجَتَهُ ٱلَّتي تَعْمَلُ عِنْدي طاهِيةً سَوْفَ تَصْحَبُهُ .

فَهَلْ تَرْغَبانِ ، أَنْتِ وَزَوْجُكِ ، في أَنْ تَلْتَحِقا بِٱلعَمَلِ عِنْدي ، فَيَعْمَلَ جيرِي سائِسًا وَيُعاوِنَهُ هارِي في عَمَلِهِ ، وَتَعْمَلي أَنْتِ طاهِيةً لي ؟ وَسَوْفَ يُخَصَّصُ لَكُمْ بَيْتٌ صَغيرٌ فَوْرَ وُصولِكُمْ .

أَرْجو أَنْ تُوافِقي .

المُخْلِصة
ماري فــاوْلَر »

ظَلَّ جيرِي وَپُولي يُناقِشانِ هٰذا ٱلمَوْضوعَ طَوالَ ٱليَوْمَيْنِ ٱلتّالِيَيْنِ ، وَأَخيرًا بَعَثَ جيرِي بِرَدِّهِ عَلى رِسالةِ ٱلسَّيِّدةِ فاوْلَر ، وَذَكَرَ في خِطابِهِ أَنَّهُ يُسْعِدُهُ أَنْ يَعْمَلَ في خِدْمَتِها . وَرَغْمَ أَنَّني شَعَرْتُ بِٱلسَّعادةِ مِنْ أَجْلِهِمْ فَقَدْ أَحْزَنَني أَنْ يَكونَ هُناكَ تَغَيُّرٌ جَديدٌ في حَياتي ، خُصوصًا وَإِنَّني كُنْتُ أُحِبُّ جيرِي وَپُولي وَابْنَهُ وَابْنَتَهُ .

حاوَلَ بَعْضُ سائِقي عَرَباتِ ٱلأُجْرةِ مِنْ أَصْدِقاءِ جيرِي أَنْ يَأْخُذوني ، وَلٰكِنَّهُ فَضَّلَ أَنْ يَجِدَ لي مَكانًا أَفْضَلَ لِأَسْتَقِرَّ بِهِ . وَكانَ يَقولُ إِنَّ جاكَ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ ٱلسِّنُّ ، وَإِنَّ ٱلعَمَلَ في جَرِّ عَرَباتِ ٱلرُّكوبِ عَمَلٌ شاقٌّ .

قَبْلَ أَنْ يَتَوَجَّهَ جيري وَأُسْرَتُهُ إلى مَقَرِّهِمُ ٱلجَديدِ باعَني إلى مُزارِعٍ يُقيمُ على مَشارِفِ لَنْدن ، وَيُدْعَى ثَرْغود . وَكانَ خَبيرًا في تَرْبِيَةِ ٱلجِيادِ ، وَقالَ لِجيري : « سَآخُذُ جَوادَكَ يا جيري ، وَسَوْفَ أُقَدِّمُ لَهُ أَفْضَلَ ٱلطَّعامِ ، كَما سَأُطْلِقُهُ لِبِضْعَةِ أَسابيعَ في ٱلحَقْلِ قَبْلَ أَنْ أَجِدَ لَهُ مالِكًا جَديدًا على قَدْرٍ مِنَ ٱلرِّفْقِ وَٱلطِّيبَةِ . »

قادَني ٱلسَّيِّدُ ثَرْغود لِيَعودَ بي . وَكُنّا في شَهْرِ أَبْريل ، وَكانَ جيري مازالَ مَريضًا ، بَعْدَ أَنْ قَضى شَهْرَي يَنايِر وَ فبراير في حالَةٍ سَيِّئَةٍ . وَلٰكِنَّهُ خَرَجَ وَمَعَهُ بُولي وَٱبْنُهُ وٱبْنَتُهُ وَهُمْ يُرَبِّتونَ عَلَيَّ لِآخِرِ مَرَّةٍ ، وَقالَ لي جيري :

« سَوْفَ تَعيشُ حَياةً سَعيدَةً يا جاكُ ٱلعَجوزُ . »

أَمّا دوللي فَقالَتْ : « سَوْفَ أَذْكُرُكَ دائِمًا . »

اَلفَصْلُ ٱلعِشْرونَ

بَيْتي ٱلأَخيرُ

كانَ ٱلسَّيِّدُ ثَرْغود عَطوفًا عَلَيَّ . وَقَضَيْتُ في مَزْرَعَتِهِ أَيّامًا سَعيدَةً ، بَلْ شَعَرْتُ أَنَّني أَصْغَرُ سِنًّا ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَكُنْ في ٱلواقِعِ جَوادًا صَغيرَ ٱلسِّنِّ .

قالَ ٱلسَّيِّدُ ثَرْغود لِلسّائِسِ : « يَجِبُ أَنْ تَجِدَ لِجاك بَيْتًا مُناسِبًا ، وَمَكانًا بِهِ عَمَلٌ مُناسِبٌ لَيْسَ بِٱلكَثيرِ أَوِ ٱلشّاقِّ . »

قالَ ٱلسّائِسُ : « إِنَّ ٱلسَّيِّدَتَيْنِ ٱلمُسِنَّتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ تَسْكُنانِ في ٱلمَزْرَعَةِ ٱلمُجاوِرَةِ تَبْحَثانِ عَنْ جَوادٍ مُناسِبٍ لِيَقودَ عَرَبَتَهُما ذاتَ ٱلعَجَلَتَيْنِ . وَتُفَضِّلانِ أَلّا يَكونَ ٱلجَوادُ صَغيرًا حَتّى لا يُسْرِعَ بِهِما . »

فَكَّرَ ٱلسَّيِّدُ ثَرْغود قَليلًا ثُمَّ قالَ : « إذا راقَ لَهُما جاك فَلْتَأْخُذاهُ ، فَهُوَ ٱلجَوادُ ٱلمُناسِبُ لَهُما . وَلٰكِنْ قَدْ يَنْتابُهُما ٱلخَوْفُ إذا ما شاهَدَتا ما بِقَوائِمِهِ مِنْ آثارِ جُروحٍ ، لِذا فَإِنَّنا سَنَأْخُذُهُ إلى هُناكَ غَدًا ، لِتُشاهِداهُ . »

كانَتِ ٱلسَّيِّدَتانِ ٱلمُسِنَّتانِ في بَيْتِهِما في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ ، أَمّا ٱلسّائِقُ فَلَمْ يَكُنْ بِٱلمَنْزِلِ عِنْدَ وُصولِنا . وَفي ٱلحالِ حَظيتُ بِإِعْجابِ ٱلسَّيِّدَةِ إِلين ، فَقالَتْ : « إِنَّهُ جَوادٌ مُمْتازٌ ، وَلَهُ وَجْهٌ رَقيقٌ ، وَسَوْفَ نُحِبُّهُ كَثيرًا . »

قالَ ٱلسَّيِّدُ ثَرْغود : « إِنَّهُ جَوادٌ مُمْتازٌ لِلْغايَةِ ، وَلٰكِنْ يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أَنْ أُرِيَكِ ما بِقَوائِمِهِ مِنْ آثارٍ لِلْجُروحِ نَتَجَتْ عَنْ سُقوطِهِ يَوْمًا . »

قالَتْ شَقيقَتُها ٱلكُبْرى مُتَسائِلَةً : « أَتَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيَسْقُطُ مَرَّةً أُخْرى ؟ »

أجابَها : « لا أَعْتَقِدُ ذٰلِكَ . إنَّ هٰذِهِ ٱلآثارَ كَثيرًا ما نُشاهِدُها بِٱلجِيادِ ، وَعادةً ما تَكونُ بِسَبَبِ ٱلإهْمالِ في قِيادَتِها . وَأَعْتَقِدُ أَنَّ جاكَ سَقَطَ لِهٰذا ٱلسَّبَبِ أَيْضًا . إنَّهُ عِنْدي مُنْذُ عِدَّةِ أَسابيعَ ، وَلاحَظْتُ خِلالَها أَنَّهُ جَوادٌ مُمْتازٌ . فَهَلْ لَكِ أَنْ تُجَرِّبيهِ يا سَيِّدة بلومفيلْد ؟ إذا رَغِبْتِ في ذٰلِكَ فَابْعَثي لي سائِقَكِ غَدًا وَدَعيهِ يُجَرِّبُ ٱلجَوادَ لِبِضْعَةِ أَيّامٍ . »

سَعِدَتِ ٱلسَّيِّدةُ ٱلعَجوزُ بِفِكْرَتِهِ وَقالَتْ : « إنَّكَ تَبيعُ لَنا دائِمًا أَفْضَلَ ٱلجِيادِ يا سَيِّدُ ثَرْغود ، فَشُكْرًا لَكَ . إنَّ هٰذا ما سَنَفْعَلُهُ في ٱلواقِعِ . »

في صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي قَدِمَ شابٌّ وَسيمٌ إلى مَزْرَعةِ ٱلسَّيِّدِ ثَرْغود ،



وَفَحَصَني وَرَأى ما بِقَوائِمي مِنْ آثارِ جُروحٍ وَعَلاماتٍ ثُمَّ سَأَلَ ٱلسَّيِّدَ ثَرْغود : « لِماذا تَوَدُّ أَنْ تَبيعَ لَنا هٰذا ٱلجَوادَ ٱلَّذي سَبَقَ أَنْ سَقَطَ عَلى هٰذا ٱلنَّحْوِ ٱلسَّيِّئِ ؟ »

أَجابَهُ : « إنَّني لَنْ أَبيعَهُ قَبْلَ أَنْ تُجَرِّبَهُ أَنْتَ وَٱلسَّيِّدَتانِ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّكُمْ سَتُعْجَبونَ بِهِ كَثيرًا ، وَيُمْكِنُكُمْ إعادَتُهُ لي إنْ لَمْ يَحْظَ بِإعْجابِكُمْ . »

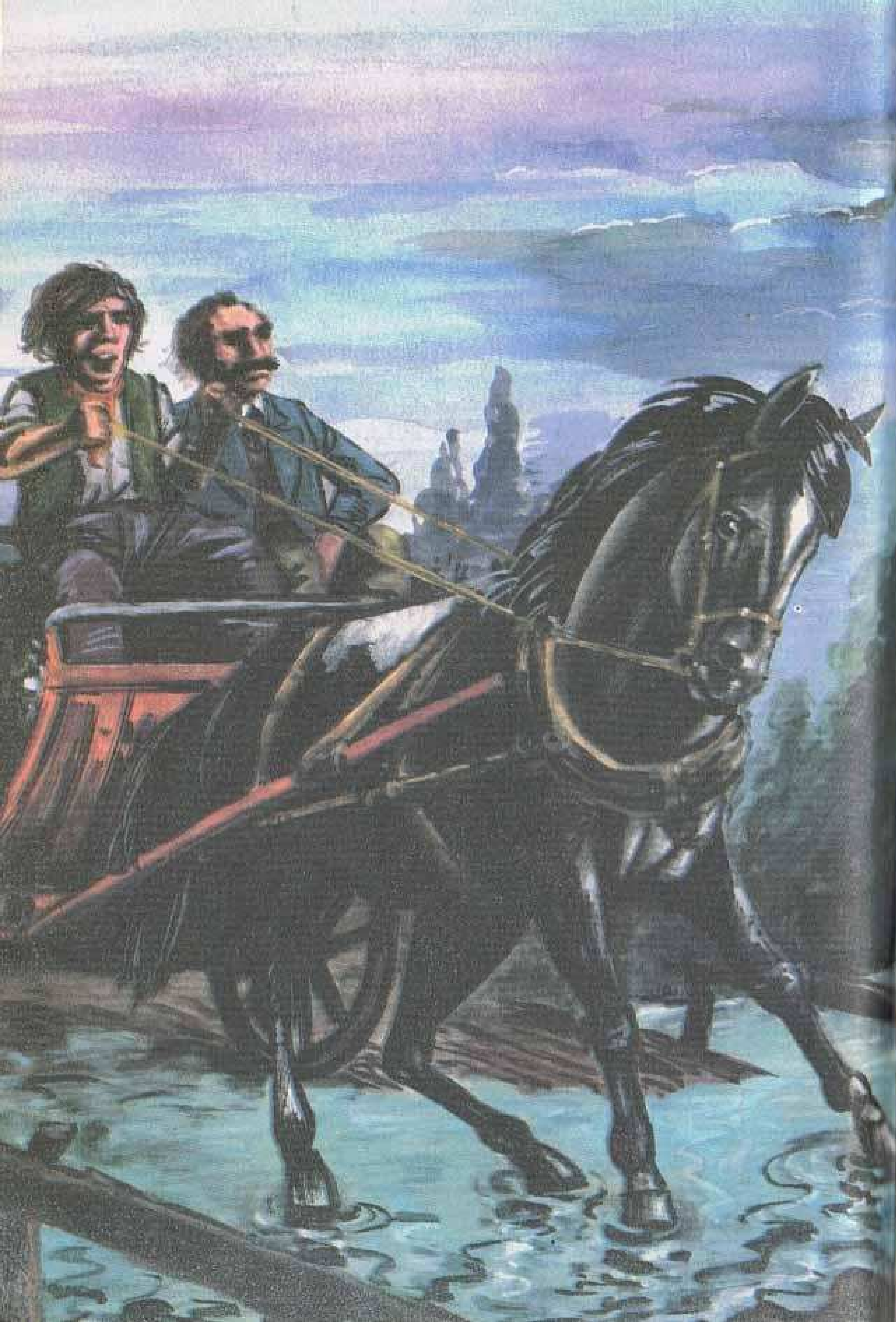
قادَني ٱلسّائِسُ إلى ٱلمَزْرَعةِ ، وَفي ٱلمَساءِ اعْتَنى بي . وَبَيْنَما كانَ يَمْسَحُ وَجْهي نَظَرَ إلى ٱلغُرَّةِ ٱلَّتي تَتَوَسَّطُ جَبيني وَقالَ : « إنَّ هٰذِهِ ٱلغُرَّةَ أَشْبَهُ بِتِلْكَ ٱلَّتي كانَتْ في وَجْهِ ٱلجَمالِ ٱلأَسْوَدِ ، كَما أَنَّ رَأْسَهُ مِثْلُ رَأْسِ ٱلجَمالِ ٱلأَسْوَدِ أَيْضًا . كَمْ أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَ أَيْنَ هٰذا ٱلجَوادُ ٱلآنَ . »

واصَلَ مَسْحَهُ لِجِسْمي ، وَتَوَقَّفَ عِنْدَ ظَهْري قائِلًا : « هُنا أَيْضًا عَلامةٌ بَيْضاءُ بِظَهْرِهِ أَشْبَهُ بِتِلْكَ ٱلَّتي كانَتْ بِٱلجَمالِ ٱلأَسْوَدِ . » ثُمَّ تَراجَعَ مُتَطَلِّعًا إلَيَّ مَرَّةً أُخْرى وَقالَ :

« بِهٰذا ٱلجَوادِ غُرَّةٌ كَتِلْكَ ٱلَّتي بِٱلجَمالِ ٱلأَسْوَدِ ، وَلَهُ ساقٌ بَيْضاءُ ٱللَّوْنِ مِثْلُهُ ، وَلَهُ أَيْضًا عَلامةٌ بِظَهْرِهِ . إنَّهُ فِعْلًا ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ ، أَلَيْسَ هٰذا صَحيحًا يا صَديقي ؟ هَلْ تَعْرِفُني ؟ إنَّني جو غرين ٱلصَّغيرُ . لَقَدْ كِدْتُ يَوْمًا أَنْ أَقْتُلَكَ . » وَأَخَذَ يُرَبِّتُ عَلَيَّ مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ .

تَذَكَّرْتُ ٱلغُلامَ ٱلصَّغيرَ ، ٱلَّذي شَبَّ ٱلآنَ وَصارَ شابًّا . وَكَمْ أَسْعَدَني هٰذا ، فَرَفَعْتُ أَنْفي مُحاوِلًا أَنْ أَجْعَلَهُ يَعْرِفُ أَنَّنا صَديقانِ . وَسُرَّ بِذٰلِكَ سُرورًا بالِغًا وَقالَ لي : « لَقَدْ قَضَيْتَ أَوْقاتًا عَصيبةً ، وَلٰكِنَّنا سَنُحاوِلُ قَدْرَ اسْتِطاعَتِنا أَنْ نُسْعِدَكَ هُنا . »

في صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي تَوَلّى جو تَنْظيفَ جِسْمي بِٱلفِرْجَوْنِ ، وَوَضَعَ عَلى



ظَهْري طَقْمَ جَرِّ ٱلعَرَباتِ لِأَجُرَّ عَرَبةً ذاتَ عَجَلَتَيْنِ . وَ كانَتْ عَرَبةً جَميلةً لِلْغايةِ ، وَ كانَت ٱلسَّيِّدةُ إلين هِيَ ٱلَّتي رَغِبَتْ في أَنْ تُجَرِّبَني ، وَ صَحِبَها جُو غرِيْن . كانَتْ سائِقةً مُمْتازةً وَ حَظِيتُ بِإعْجابِها .

سَمِعْتُ جُو يَحْكي لَها عَنّي ، وَيَقولُ إنَّني كُنْتُ أُدْعَى ٱلجَمالَ ٱلأَسْوَدَ عِنْدَما كُنْتُ في حَظائِرِ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون .

عِنْدَما عُدْنا إلى ٱلمَزْرَعةِ وَجَدْنا ٱلسَّيِّدةَ بلُومْفِيلْد بِٱلبابِ ، وَ قالَتْ : « إنَّهُ حِصانٌ جَميلٌ . هَلْ هوَ مُمْتازٌ أَيْضًا ؟ »

أَجابَتْها ٱلسَّيِّدةُ إلين : « نَعَمْ إنَّهُ مُمْتازٌ جدًّا . وَلٰكِنْ هَلْ تَعْرِفينَ مَنْ هوَ ؟ إنَّ اسْمَهُ ٱلجَمالُ ٱلأَسْوَدُ ، كانَ يَوْمًا في مَزْرَعةِ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون ٱلَّذي كانَ يُحِبُّهُ كَثِيرًا . وَيَقولُ جُو إنَّ هٰـذا ٱلجَوادَ قَدْ أَنْقَذَ حَياةَ زَوْجةِ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون وَكادَ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ في سَبيلِ إنْقاذِها . سَأَكْتُبُ خِطابًا إلى زَوْجةِ ٱلسَّيِّدِ غُورْدُون لِأُبْلِغَها هٰـذا . وَلاشَكَّ أَنَّها سَتُسَرُّ عِنْدَما تَعْرِفُ أَنَّ ٱلجَمالَ ٱلأَسْوَدَ هُنا . »

في ٱليَوْمِ ٱلتّالي تَوَلَّيْتُ جَرَّ ٱلعَرَبةِ ، بَيْنَما كانَتِ ٱلسَّيِّدةُ بلُومْفِيلْد تَقودُها ، وَقَدْ حَظِيتُ بِرِضاها أَيْضًا ، بَلْ وَسَمِعْتُها تَقولُ لِلسَّيِّدةِ إلين : « سَوْفَ نَحْتَفِظُ بِهٰـذا ٱلجَوادِ وَسَنُعيدُ لَهُ اسْمَهُ ٱلقَديمَ – ٱلجَمالَ ٱلأَسْوَدَ . »

وَهَأنَذا أعيشُ هُنا سَعيدًا مُنْذُ عامٍ تَقْريبًا ، وَمَعي جُو أَعَزُّ أَصْدِقائي ، ذٰلِكَ ٱلسّائِسُ ٱلحَنونُ ؛ كَما أَنَّني أَتَمَتَّعُ بِحُبِّ ٱلجَميعِ هُنا . وَقَدْ قالَتِ ٱلسَّيِّدَتانِ إنَّهُما لَنْ تُفَكِّرا في بَيْعي .

إذًا فَلَيْسَ هُناكَ ما أَخْشاهُ ، وَسَأُواصِلُ عَمَلي سَعيدًا طَوالَ حَياتي هُنا .

الحكايات اللطيفة

١ - حكايات من ألف ليلة وليلة
٢ - البطة الصغيرة القبيحة وقصص أخرى
٣ - الجواد الأسود الشجاع
٤ - حكايات من تاريخ العرب
٥ - الصندوق العجيب وقصص أخرى
٦ - الحذاء السحري وقصص أخرى
٧ - أليس في بلاد العجائب
٨ - حورية النار وقصص أخرى
٩ - أولاد الغابة

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 603 01